منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

شرفة الهذيان

رواية



الطبعة الثالثة

I B R A H I M N A S R A L L AH

BALCONY OF DELIRIUM

إبراهيم نصر الله

شرفة الهذيان

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة
1431 هـ - 2010 م

ISBN: 978-614-421-039-0

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: الفنان العراقي إسماعيل فتّاح
تصميم الغلاف: الفنان محمد نصر الله

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الأغنية الأولى!!

نعم، باستطاعتكَ أن تُغمضَ عينيكَ وأن تُديرَ ظهرَكَ؛ باستطاعتكَ أن ا
صبركَ وأنتَ تبحثُ عن الرّيموت كنترول باحثًا عن محطةٍ أخرى تُطفئُ بها النا
التي أشعَلَتْها فجأةً قطرةُ العَرَقِ التي راحتْ تنحدرُ من أعلى رقبتكَ حتى آخ
نقطةٍ من عمودكَ الفقري. نعم.. باستطاعتكَ أن تَلعَنَ اللغةَ، تلكَ التي لم تُسْعِ
بأكثر من كلمتين هما: الرعبُ والجحيمُ، وأن تتلاشى بعدَ لحظات في حدي
أطفالكَ الموتى عن الاحتمالاتِ الغامضة والمحتَمَلَةِ لبرامجِ سهرةِ الليل
باستطاعتكَ أن تُتابِعَ الكَذبَ على الهواءِ مباشرة المدةَ التي تحتاجها كي تطمئ
على المستقبل، وتواصلَ السهرة مع أي فيلم تختار. لا بأس، فَهمْ لا يريدونَ من
أكثرَ من ذلك. باستطاعتكَ أن تذهبَ أبعدَ: أن تدخلَ في حديث مُعادٍ، وأ
تكتشفَ المصادفةَ الغريبةَ في كونكَ ميتًا مثل الآخرين، فَهُمْ لا يريدون منكَ أكث
من ذلك. باستطاعتكَ أن تُقبِّلَ أطفالكَ أو لا تُقَبِّلهمْ قبلَ النوم، تلكَ حريتكَ ا
لن يتدخَّل فيها أحد؛ وأن تنامَ على جانبكَ الأيمنِ أو الأيسر، وأن تحلُمَ بأجم
ممثلة غير عابئٍ بعيونِ الأقمارِ الصناعيَّةِ السّاهرةِ، تلكَ حريتُكَ التي لن يتد
فيها أحد. باستطاعتكَ أن تَتَناولَ الإفطارَ في السّابعة أو العاشرةِ، وأن تتناو
خبزًا أبيضَ أو أسمرَ، لا فرقَ هنا، تلكَ حريتُكَ التي لن يتدخَّل فيها أ
باستطاعتكَ أن تمتَدحَ القمرَ دونَ أن يطلبوا منكَ بصماتِكَ العَشْر وفصيلةَ د
وخريطةَ الوراثة، تلكَ حريتُكَ التي لن يتدخّلَ فيها أحد. باستطاعتكَ أن تُد
زوجتَك، أو تظلّ مُخلِصًا لذكرى مارلين مونرو.. أن تصطحبَ العائلةَ إلى
(بُرغركنغ) أو (فرايد تشكن)، وأن تُعلنَ انحيازَكَ لأيِّ مشروبٍ غازيٍّ تُريد، تا
حريتكَ التي لن يتدخَّلَ فيها أحد. باستطاعتكَ أن تفتحَ بيتًا في الماضي وتأو

إليه، أو تُفكِّرَ في سقفٍ قرميديّ أحمرَ، أن تتشبَّثَ بسطح بيتكَ الطينيِّ تَتطلَّعَ بلهفة إلى عتباتِ الرُّخام الجديدةِ، تلك حريتكَ التي لن يتدخلَ فيها أحد باستطاعتكَ أنْ... ولكنْ حين يأتونَ.. تذكَّرْ: لن تكونَ أكثرَ من كتلةِ العري تلا فوق كتلةِ العري التي تحتَها.. فوقَ كتلةِ العري التي تحتَها؛ ولعلَّهم سيُتَمْتِمُور بخشوع وهم يَروْنَ قطرةَ العَرَقِ تلك التي تنسابُ من عنقكَ نحوَ آخرِ نقطةٍ خف من عمودكَ الفقريّ، إذ يُشْرِعُونَ حماستَهم!! وهُمْ يتضاحكونَ...

مُتَطَلِّعيَن لعتمةِ

كهفك

الصغير!

الأمر الغريب

في طريقه لاستلام عمله الجديد، كان متفائلًا إلى حدٍّ لم يخطر له ببال السّماء مضاءة بزرقة تُذَكِّر بمحيط، والأشجار أكثر خُضرة مما رآها في أيِّ يوم مضى. لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يتلاءم أبدًا مع جلال المشهد كان فرْطُ الصّمت.

صمتٌ عميق لا يليق بصباح يذهبُ فيه المرء لاستلام عمل جديد مرتديًا أفضل ملابسه؛ صمت يتدحرج حوله كُراتٍ بيضاءَ تتجاوزه وتعود من جديد صاعدةً باتجاهه، تتجاوزه، يلتفتُ إليها، تصعدُ ارتفاعاتٍ لا تراها العيُن إلى أ تغدو أكثر علوًّا من جبال المدينة كلّها، ثم تتدحرج من جديد، ببطء، كما لو أنها لا تريد أن تجرح النُّور.

فجأة سمعَ فرقعةً صغيرة في الأعلى، فتغيَّر كلُّ شيء، حدَّق في السّماء الزرقاء، في وسط السّماء الزّرقاء تمامًا، ورأى ذلك المشهد الغريب: (ريش يتطاير فوق رأسه، على ارتفاع كبير). وقبل أن يُدركَ ما حدَث، أحسَّ بشيء مـ يرتطم به، شيء خفيف، حين التفتَ إلى موقع سقوطه فوق كتفه الأيمن، أدرك سريعًا أنه قطْرَةُ دم!

ارتفع نظره ثانية نحو مركز السماء، ورأى كتلة الرّيش بصورة أوضح مُعَلَّقَةً في الفراغ.

التفتَ حوله باحثًا عن رجُل ما، ببندقية صيد ما، رجُل ماهر يستطيع أن يصيبَ عصفورًا صغيرًا بهذه الدِّقة.

لم يكن هناك أحد.

دار ثانيةً حول نفسه.

لم يكن هناك أحد.

كان متأكدًا من أن أفكاره كانت موزّعَة في حلم يقظتها الطويل حول الوظيفة الجديدة التي يذهب إليها على مضض.

فهي في النهاية أول وآخر الفرص التي سنحتْ له.

كان متأكّدًا بأنه ابتعد، وأن أشياء كثيرة تلاشتْ حوله بعد أن اطمأنَّ لوجود زرقة السماء وخضرة الأشجار على ذلك النحو الذي لم يره من قبل، فاعتبر ذلك من أمارات الخير.

كان متأكّدًا من أنه لم يكن هناك، حين كانت كراتُ الصّمت تتدحرج على جانبيه بطريقة لم يُدرك معناها.

لكن الأمر الذي بقي يُحيِّره، أن شروده لا يمكن أن يصمد أمام صوت انفجار طلْقة، وقد تمكنتْ أذناه من التقاط صوت الفرقعة الصغيرة تلك: فرقعة انفجار جسد ذلك الطائر الذي كان يُحلِّق، لا بدَّ، مصادفة، فوق رأسه.

لم يقبل لنفسه أن يبدأ يومًا مضاءً بكلِّ هذه الزُّرقة وبكل هذه الخُضرة بلحظة هذيان.

امتدتْ يده إلى جيبه، أخرج منديلًا ورقيًّا أبيض، مسحَ قطرةَ الدم، ونَدِمَ؛

ها قد أصبحتْ أكثر اتِّساعًا.

قرَّبَ الطرفَ الآخر من المنديل لشفتيه، بلّله ببعض لعابه، مسح البقعةَ ثانية وكرر الأمر ثلاثَ مرات؛ وعندما بدا له أنه نجح في ذلك وراح يتأمل موقعها برضا لا بأس به،

سقطتْ

قطرةٌ

أخرى من الدّم
في المكان نفسه
وراحتْ تتَّسعُ بسبب رطوبة قماش الجاكيت بتسارع أفسد براءةَ وهدوء لونه العُشبيّ الفاتح.

الأمر المهم

- ها أنتَ أيضًا يحدثُ لك الأمر نفسه. قال.

وأضاف: غريب!

وكانت عيناه قد استقرّتا على كتف (رشيد النِّمر).

وبتسارع غير عادي قطَعَ الرّجل العجوز حبلَ أفكاره الذي بدا وكأنه أخذه بعيدًا بتلك الكلمات القليلة، الكلمات التي لا بدَّ من قولها في حالة كحالته، وقد أنهى خدمته ووقف واهنًا يسترجع الماضي، خطفًا، كي لا يلحظه أحد. الكلمات الوصيّة التي لا بدّ من أن تُقال للمسؤول الجديد الذي وصل أخيرًا لتسلُّم الرّاية:

- سيزوركَ صحفيون لتصوير المكان، وها أنا أحذِّرك، لا تسمح لأيّ منهم أن يصعد إلى سطح المبنى ليلتقط الصّور. اجلبْ له تلكَ الطاولة، ضعْها في وسط الساحة، ثم دعْهُ يعتليها ويلتقط الصّور التي يريد من فوقها.

وأخذ الرجل العجوز نَفَسًا عميقًا وسأله:

- فهمتَ؟

- بالتّأكيد.

شكره رشيد النِّمر كثيرًا على هذه النّصيحة الغالية.

لكنه لم يجرؤ على أن يسأله: وما السبب؟

لا لشيء،

إلّا لأن التحذير بدا على درجة من الخطورة لا تحتمل ترفَ الأسئلة.

وحيَّره كثيرًا، أن الرّجل العجوز، حين استدار في طريقه للباب الخارجي، لم يصافحه.

(ولعل هذا ما جعل الأمر في نظره أكثر خطورة!)

لكن ذلك لم يُفْسِدِ عليه فرحة الحصول على هذه الوظيفة.

* * *

بعد انتهاء الدوام، أغلق بوابة المركز جيدًا وقررَ التجوّل حوله لمعرفة المكان أكثر..

ليس هناك الكثير..

(هذا ما رآه على الأقل)

دكاكين، سوق خضار، موقف سيارات عمومية، عيادة، مدرسة للذّكور وأخرى للإناث، أربع صيدليات، مركز دفاع مدني، مخفر شرطة، ناد رياضي، مخبز، خمسة مطاعم متلاصقة، شقق فارغة للإيجار، ساحة ترابيّة تتجمّع فيها النّفايات وتفوح من جوانبها رائحة البول.

لا شيء.. لا شيء أبدًا!

رفيف أجنحة

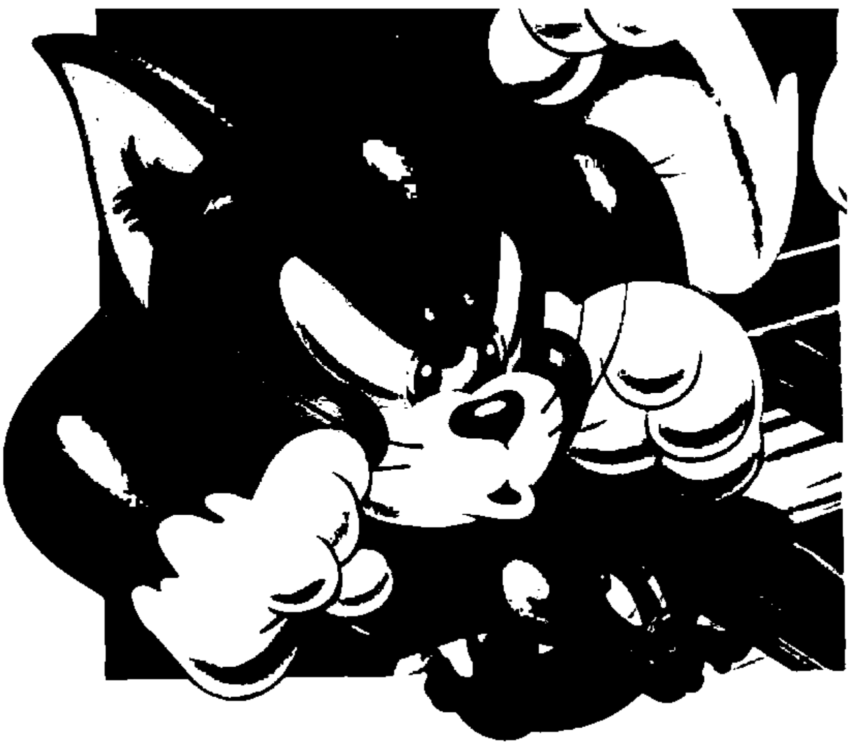
الذين لم يسمعوا ، من قبل، رفيفَ أجنحة الطيور
ولم يلاحقوا الريح صغارًا ، في أزقّة المدن
ولم يعرفوا طعم القُبْلة إلّا بعد الثّلاثين
كانوا سيفرحون مثله!

الذين لا يعرفون موعد شروق الشمس
أو تلك اللحظة الحرجة التي يصيح فيها الدِّيك
ولم يتساءلوا يومًا عن سرِّ تلك الوحدة التي يعانيها صقرٌ وحيدٌ على شرفة مهجورة
كانوا سيفرحون مثله!

الذين لا تتذكَّر أقدامُهم من الطُّرق
غير غبارها
ومن السَّير تحت النّجوم
غير الخوف من العتمة
ومن تأمُّل الزّهور
غير موتها المبكر
كانوا سيفرحون مثله!

الذين يزرعون النباتات الصّغيرة في زوايا البيوت
لكي تذكِّرهم بالغابة

ويُربّون السّلاحف البريَّة تحت مقاعد القشِّ كي لا يتذكّروا الخيول
ويركضون، موضعيًّا، في الغرف الصغيرة كما لو أنهم على شاطئ البحر
كانوا سيفرحون مثله!
الذين يرتدُون الدُّروعَ الثقيلة كلّما ذهبوا للقاء امرأة
والنظّارات السوداء في صالة السينما لإخفاء الدمع
خشية النّهايات السعيدة
ويُخْفون بدِراية المتعَبين مخلّفات الابتسامات المُختَلَسة
أمام (توم آند جيري):



كلّما ذهبوا صباحًا للعمل
كانوا سيفرحون مثله!

الذين لا ينظرون إلى المرآة

إلا ليتأكّدوا من أنهم لم يزالوا هنا
ويُقَلِّبون الوثائقَ عندما تغفو الزّوجة كي لا ينسوا أسماء أولادهم وعلاماتهم الفارقة التي دوَّنتْها الدّولةُ
كانوا سيفرحون مثله!

الذين يخطئون كثيرًا في أسماء أولئك الذين يلتقونهم
واثقين من أنهم لن يروْهم ثانيةً
ويحترسون من غوايات أحلامهم في الليل
ويخشون أكثر أحلام اليقظة
ويسهرون بين أَسِرَّة الأبناء ببنادق سريعة مهيأة لإصابة الأطياف
كانوا سيفرحون مثله!

لكنّه استيقظَ قبل هؤلاء كلّهم
الزَّهْريَّة الفارغة بجانبه تهتزّ
ونظرةُ أبيه المُعلَّقة بمسمارين تتأرجح أمامه شامتةً
نظّارتُه تزحف باحثةً عن عينين
والأولاد يرتفعون ويهبطون نائمين فوق أسرَّتهم
والمرأة، أعني زوجته، تشير بإصبعها لشيء في الفراغ وتواصل شخيرها برائحته الكابوسيّة
الزهورُ على اللحاف تتفتَّح صاعدةً دون ورَع باتجاه أنفه
وشاشة التلفاز فجأة تضيء..
والمذيعة التي كم أحبّها تُعلنُ بكلماتها العذْبة

بداية عصر جديد:



منذ زمن بعيد كان ينتظر، ولعلّه الوحيد الذي حينما كان يخرج للشّرفة ويتأمل المدى، لم يكن يبحث عن شيء، غير هذا الذي يصل أخيرًا. وإذا ما أردنا تلخيص الأمر بكلمتين اثنتين.. وثلاثين معنى يفترس الواحد منها الآخر سنقول:

كأن (جودو)[1] وصل.

قد لا يعرف رشيد النِّمر شيئًا كثيرًا عن جودو

وقد لا يتذكَّر اسمَهُ بعد لحظات إذا ما سمعه

لكنّه لن يختلف معنا

في أن جودو وصل

الشّرفة كانت تتأرجح

لكنها لم تكن تُفكّر بشيء غير أن تسبقَهُ

أما حبال الغسيل فقد التفَّ الواحدُ منها على الآخر

وقد أرهقتْها تلويحاتُ أكمام القمصان

وركلاتُ أرجل البناطيل التي بدَتْ وكأنها في واحدة
من مباريات الشَّوط الأخير لكأس العالم!

أما العصفور الرَّابض تحت شَبَكِها الحديديّ
فقد كان يفكِّر في ذلك الذي يُمْكِنُ أن يفعله عصفور في موقف كهذا
لكن الشيء الوحيد الذي لم يخطر بباله:
أنَّ له أجنحة!

يوميات - 1

امرأته قالتْ له: أريد أن أدخّن سيجارة.

- وما الجديد في الأمر؟!

- إنني أشاهد المسلسل، ولذلك باستطاعتكَ أن تذهب إلى المطبخ وتنتظر هناك انتهاءَ سيجارتي.

ذهب للمطبخ.

حين عاد، كانت زوجته قد اختفتْ كما لو أن الدُّخان الذي يتصاعد على الدّوام منها حَمَلَها وألقاها بعيدًا.

كانت في صِباها أشبه بمنفضة سجائر.

هكذا كان يحسّ كلّما قبَّلها،

أما الآن فإنها تشبه مدخنة!

كم كره المطربة الناعمة (نجاة الصغيرة)، التي كانت، من قبلُ، واحدةً من أقرب المطربات إلى قلبه عندما تجرأتْ وغنّتْ:

(على المقاعد بعضٌ من سجائره

وفي الزّوايا بقايا من بقاياه!)

وتساءل بسخط: كيف لها أن تنام وفي الغرفة سجائر مطفأة؟!!

يومها، وقف في الشّرفة ونثر أشرطتها في الهواء حبالا بُنيَّةً لامعةً بما فيها من أغنيات يحبّها؛ حتى تلك، أغنيته المفضّلة: (ساكِنْ قصادي وبحبّه).

حين عاد من المطبخ

قال له الأولاد: نريد أن نشاهد (توم آند جيري) ولذلك باستطاعتك أن تذهب

إلى المطبخ وتنتظر هناك حتى ينتهي العرض..

- لا بأس. سأشاهده معكم.

- لا. أُمّنا قالت لا تَدَعوه يشاهد أفلامًا كهذه. هذا يعني أن تتحوّل بالنسبة لها إلى ابن آخر، بدل أن تلعب دوْرَكَ كزوج وأب. ثم راحوا يصرخون باسمه إلى أن أطلتْ من داخل سحابة الدّخان السّوداء: - ماذا؟!

- ألم تقولي لنا: لا تَدَعُوه يُشاهد أفلامًا كهذه؟

راحتْ تنظر إليه بصمت حجريّ.

بحث عن ابنته، تلك التي لا تتأخّر عن مدّ يد العون له، بصمتها الغريب، كلما احتاج لذلك، لم تكن بينهم.

- لن تنفعكَ تلك التي لا تستطيع أن ترى أبعد من أنفها! قال ابنه الصغير وقد أدركَ ما يريد.

ذهب للمطبخ.

وحين لم تنته الحلقات، نام هناك.

الأمر الأهم

بعد يومين سمع طَرْقًا صاخبًا على الباب الخارجي للمركز..

انطلق مُسرعًا، فقد كانت هذه هي المرّة الأولى التي يَطْرُقُ فيها أحد الباب منذ يومين!

كان الرّجل العجوز بالباب واقفًا يصفعُ جبينه بقوة مُردّدًا: يلعن الشّيطان!! يلعن الشيطان!! نسيتُ أن أقول لكَ الشّيءِ الأهمّ بعد أن شُغِلْتُ عنه بالشّيءِ المهم!

نظر رشيد النِّمر إليه وقد دبَّ الفَزَعُ فيه أكثر، ووجد نفْسَه يلعن اليوم الذي جاء به إلى هنا، اليوم الذي جعله يَقْبَلُ بوظيفة كهذه لا علاقة لها بتخصّصه أو برغبته، أو حتى بهواياته! هذه الوظيفة التي لم يفهمْها، ولم يفهم أبدًا ما عليه أن يقوم به حين يؤدّيها، غير أن يكون في هذا المكان. المكان الذي أطلقوا عليه اسمًا كبيرًا: (المركز الإعلامي).

اجتازَ العجوزُ عتبة الباب الخارجيّ، حين وجد أن رشيد النِّمر لم يَدْعُهُ للدّخول، ولكنه قبل أن يفعل ذلك..

نظر يمينًا

شمالًا

وخلْفًا

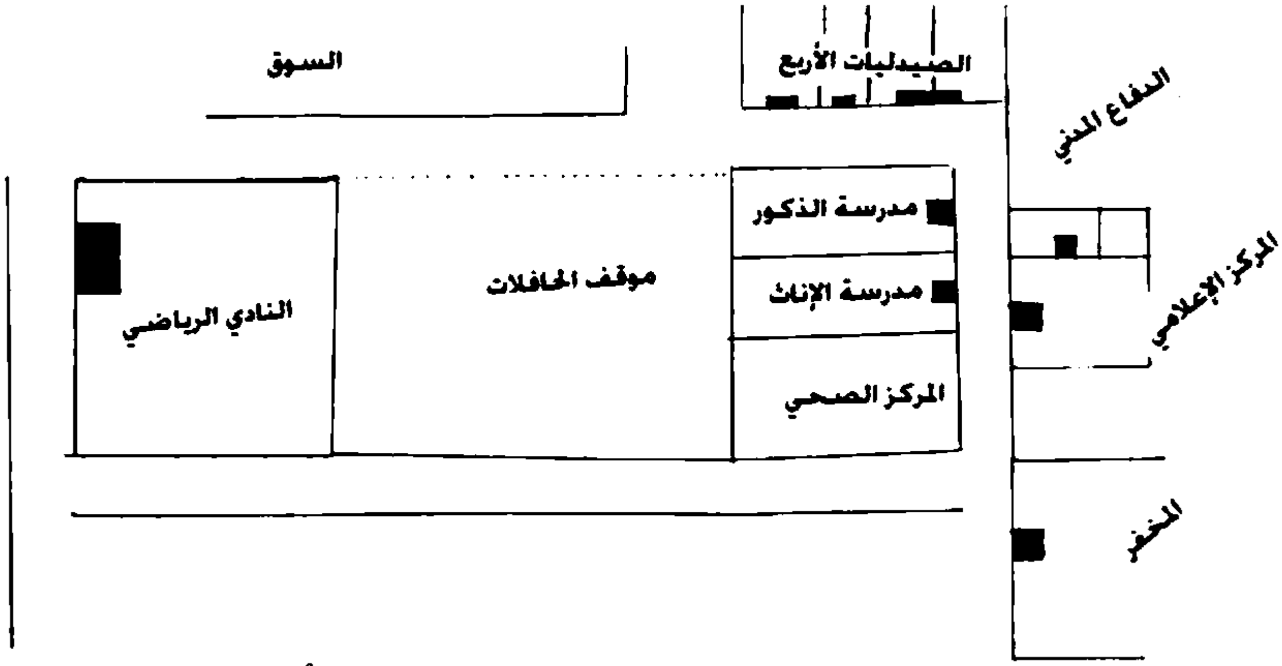
بفَزَع لا يَخفى،

وبخطوات سريعة لا تنتمي لعمْره، استقرَّ أخيرًا وسط السّاحة.

- ما نسيتُ قوله، وعليك أن تتذكَّره جيدًا، فأنت شاب ولم تفقِدْ ذاكرتَك بعد.

وصمتَ قليلا مُطْلِقًا أُذنيه ترصدان الأصوات في المكان، وعينيه تبحثان عن

ظلال.



- ما نسيتُ قوله: باستطاعة الذي يجيئكَ لالتقاط الصُّوَر، أن يوجِّه الكامير إلى الشَّمال ويُصوِّر، إلى الجنوب ويُصوِّر، إلى الشّرق ويصوّر، إلى السّماء ويصوّر! أما إلى الغرب فإياك ثم إياك أن تسمح له بذلك. فهذا ممنوع.. ممنوع تمامًا، أعني تمامًا تمامًا.

ولأن المهمةَ انتهتْ، وقد كان حريصًا على إنهائها بأقصى سرعة ممكنة، فقد استدار الرّجل العجوز قاصدًا الباب، وقبل أن يصله استدار، ومدَّ له يده مصافحًا. في حين كان وجهه مضاءً بابتسامة يحيط بها الشعر الأبيض لشاربه ولحيته التي مرَّ عليها يومان بلا حلاقة.

- لقد تذكَّرتُ حينما خرجتُ قبل يومين أنني لم أصافحك، وبقيتُ أتساءا كيف حَدَثَ ذلك، إلى أن تذكّرتُ أنني نسيتُ أن أقول لك الشيء الأهم؛ ولعا هذا حَدَثَ بسبب محاولتي أن أتذكَّره دون جدوى!

وصمت قليلا.

ثم سأل: هل باركتُ لكَ بوظيفتك الجديدة؟

- لا.

- كنتُ أظنُّ أنني لم أفعل. مبروك. ألف مبروك!

أمام الشمس

من قديم ألقت المدينةُ قدميها على حافة السَّيل
والتهمتْ أشجارَها أمام الشمس
كي لا تنهض الخُضرة في الليل
وتفاجئهم نائمين بما تبقّى فيها من ماء.

من قديم
أَعدَّ الرّجال خزائن مضيئة
وحشروا فيها ظلالهم
وسُمْرَةَ نسائهم
وشَعرَ بناتهم الأسود
والضّحكَ الذي لم يكن له ذات يوم سبب
وخرجوا لمكاتبهم مطمئنّين.

من قديم
لم يقعوا في خطيئة أن يكون هنالك شيء
أعلى من قاماتهم
حتى لوْحات الإعلانات
كي لا تُسوِّل لهم أنفسُهم أن ينظروا للأعلى

من قديم
ربطوا القيلولة بحبال قويّة

ورفعوا الأسْيجَة حول أجسادهم

وحرصوا على أن يكون ثمة واحد منهم، دائمًا، ساهرًا في الظهيرة بعينين حمراوين..

(لطالما ردّدَ: إن أردتَ العيش طويلا هنا

فما عليك إلّا أن تحذرَ ابتسامة المرأة

والطُّرُقَ الحمقاء التي تجرُّك إليها الأحلام)

من جديد

جاءه الشّرطي ببعض الأشلاء

وقال له: احرص على أن تدفنها عميقًا

وحين سألَه: وما علاقتي بهذا؟!

(ونَدِمَ بعد ذلك كثيرًا على السؤال!)

قال له الشرطي: هذا حلمٌ عَبَرَ شرفةَ بيتك العالي بعد منتصف الليل.

وحين قال للشّرطي: إنه لم يحلم.

(ونَدِمَ كثيرًا لأنه قال ذلك!)

قال له الشرطي: أتريد القوْل إنك تعرف أكثر مني؟!

وحين لم يُجبْ أضاف الشّرطي: وهل أنتَ واثق من أن أبناءك، أو زوجتك، لم يحلموا، في غفلة منك؟!!

قال: بالتأكيد.

- ولماذا؟ سأله الشّرطي بغضب.

- لأنني قتلتُهم!!

- وهل دفنتهم كما ينبغي؟

تلعثم: غير متأكِّد.
- عُدْ لأسرتِّهِم وتأكّد. قال له الشرطي بلطف باغته.
ولم يكن ثمة سبب للطفه غير أن هذا الشرطيَّ
مثل بقية الشّرطة هنا
يعرفون جيدًا أن هذا الخطأ الذي وقع فيه رشيد النِّمر
هو واحدٌ من الأخطاء الشّائعة في هذا البلد، كسواه، لا أكثر!!

الأمر الأغرب!

مرَّ وقتٌ طويل على قَطْرَتي الدَّم اللتين كانت تفصل بينهما ثلاثُ دقائق على الأقل، بحيث يمكن القوْل: لقد نسيهما تمامًا.

أشرع باب الشّقة الصغيرة المُعَلَّقة بقضبان الحديد وكتل الإسمنت جيدًا في الدَّور الثالث، وهبط الدرجات مُحاذرًا، ما استطاع، الارتطام بحديد الحمايةِ الذي تفوح منه رائحة الدّهان منذ يومين.

جاره الدّكتور، أستاذ العلوم الاجتماعية، كان يصرُّ دومًا على أن يكون المكان أنظف: أبواب الشّقق، باب العمارة، وأن يكون الممرُّ الصغير الذي يوصِل البناية بالشارع مضاءً باستمرار على نحو مثاليّ.

كانت المشكلة الوحيدة التي استسلمَ أمامها هي المصعد، فبعد محاولات كثيرة لإصلاحه، باءتْ جميعُها بالفشل؛ أصبح، أحيانًا، يغضّ الطَّرْف عن هذا النّقص الذي كان يُصيبُ العمارةَ في الصَّميم. لكنه لم يستسلم بسهولة، إذ بقيَ مُصرًّا على أن المصعد خُلِقَ ليصعد، إلى أن تعطّل ثلاث مرات وهو في داخله؛ وحين خرج بمساعدة من الجيران مرَّةً، وبمساعدة من رجال الدفاع المدنيّ مرّتين، قرر أن يتعامل مع المصعد كما لو أنه لم يكن موجودًا في البناية أصلًا؛ لا لشيء، إلّا لأنه كان يخرج في كلّ مرَّة منه بهيئة مزرية تمامًا؛ وقد فاض عَرَقُهُ وأغرقه وتناثر شعر رأسه وبدتْ حلاقتُه لذقنه، التي لم تمض عليها ساعتان، بشعة إلى حدٍّ لا يُحتَمل.

- فقط، لو كان لهذه البناية مصعد. ألا ترى بأن الوضْع كان يمكن أن يكون أفضل بكثير؟! هكذا كان الأستاذ الجامعيّ يُردّد في أوقات متباعدة؛ وقد أحسَّ أن الجيران نسوا حكاياته الثلاث مع هذا القفص العجيب؛ القفص الذي

يحملك بجناحيه ويهبط بك كما لو أن لكَ أجنحة.

أما الشيء الأكيد، فهو: أن أناقة الدكتور لم يعد يمسّها أيّ سوء منذ ذلك اليوم البعيد الذي توقَّفَ فيه المصعد بين الدوريْن الثالث والرابع. ومع الأيام استعاض عن ذلك الفقدان بحضور نظافة الممرّ والدَّرج والحائط الذي يحاذيه ولمعان شبك الحديد الأسود مُتقن الصُّنع.

* * *

خروج رشيد النِّمر من ممر البناية، دون أن يلامسَ الدّهان، كان أمرًا مفرحًا بحدِّ ذاته، أمرًا يمكن الحديث عنه طويلًا، لا لشيء! إلا لأنه كان في كلّ مرة، وفي اللحظة الأخيرة ينسى أمرَ الدّهان فيلوث إحدى يديه أو أطراف ملابسه.

سار في طريقه المعهود، مبكرًا، قبل الجميع.

كم كان ذلك يبعث فيه أحاسيس رائعة ليس أولها أن هذا الشارع له.

كل شيء كان يسير بهدوء، ولم تكن الأمور قد أصبحتْ معقَّدة، كما وصلت إليه فيما بعد، بشأن العصافير!

(سنأتي على ذِكْرها لاحقًا!)

بمجرد أن أنهى الشّارع الفرعيّ الطّويل الذي تقع فيه البناية، الشارع الـ Dead End انعطفَ، كما يحدث كلَّ يوم، نحو الشارع الرّئيس. أشجار الحوْر على رصيفيه، تتخللها بعض أشجار الصنوبر والسّرو وأشجار النخيل، والبِدْعة الجديدة التي اكتظَّتْ بها معظم الأرصفة: زيتون الشوارع.

(من شرفته يمكنه أن يَرى رأس شجرة نخيل غير مثمرة وجانبًا من شجرة صنوبر غير مثمرة أيضًا..)

وقبل أن يضع قدمه على حافة الشارع في طريقه للجهة الأخرى، سَمِعَ تلك الفرقعة المكتومة، وحين استدار نحو مصْدر الصوت باغتته قطراتٌ ساخنة لطَّختْ وجهه، وقميصه الأبيض الذي كواه بنفسه مساء اليوم السابق وعلّقه بحرص في المكان المناسب.

أخرج المنديل الورقيَّ الأبيض من جيبه كالعادة..

مسح وجهه..

وحيَّره أن دَمًا بهذا المقدار يمكن أن يحتضنه جسدُ عصفور.

ألقى بالمنديل الأبيض على الطريق.

تلفّتَ حوله..

لم يكن هناك أحد!

أخرج المنديل الثاني، وقبل أن تصلَ يده للقميص، أدركَ يأسَ محاولته.

كان تنظيفه أمرًا مستحيلًا.

تلفَّتَ إلى شجرة الحَوْر، تلك التي شَهِدَتْ الانفجار الصغير، خائفًا أن يتكرّر الأمر بعد دقائق ثلاث كما حدثَ في المرّة الأولى.

انتظرَ!!

لم يحدُثْ شيء

ومرَّتْ سيارة مُسرعة، خُيِّلَ إليه أن مسّاحات زجاجها الأمامي كانت تتحرّك بتسارع كبير.

حمد الله أنه لم يزل قرب البيت.

عاد.

أشرع الباب بسرعة، عَبَرَ الممر بسرعة، خلع قميصه أمام الحمَّام بسرعة،

انعطف إلى غرفة النوم بسرعة. كان شخير زوجته يتصاعد..

طمأنه هذا.

امتدَّت يده لباب الخزانة، فتحه، فأصدر ذلك الصَّريرَ المجنون. توقّف قليلاً قبل أن يفتحه تمامًا، لم تصحُ امرأته، واصلتْ يدُه العمل. تواصل الصَّرير. توقَّفَ. تناول أول قميص لامسته يده وخرج نحو الممر تاركًا باب الخزانة مُشْرعًا.

كانت الغرفة معتمة، حيث الأباجور شبه مُغلق؛ فكَّر أن يعود ليُغلقَ باب الخزانة..

- ستصطدم به إذا ما نهضتْ في ظلام كهذا!

لم يعُد!

بسرعة راح يكوي القميص في صالة الجلوس، حيث المكوى هناك دائما وطاولته.

ارتداه بسرعة، اتّجه للباب، وقبل أن يصله التمعتْ في ذهنه صورةُ تلك المظلّة الموردَّة. عاد. وقد كان يعرف مكانها تمامًا حيث حُشرَتْ في الزاوية البعيدة بجانب الخزانة.

استلَّها من بين الأشياء الكثيرة المحيطة بها على وقْعِ شخير امرأته.

وخرج.

مَنْ يعرف متى يتكرّر أمرٌّ كهذا؟!

حين أصبح في الشارع، سمع غناءَ عصفور قادمًا من الأعلى، غناءً عاليًا، ولم يكن بحاجة للكثير من الفِطنة كي يعرف مصدره.

أخذ نَفَسًا عميقًا وهمس لنَفْسِهِ: أهذا وقته؟!!

تريد غناءً إذن!

قبل زمن طويل قالت له زوجته بحزم: إنهم يريدون كلبًا.

حاول أن يبدو طبيعيًّا ما استطاع.

أكّد لهم: العصفور أجمل. كما أن صوته أكثر نعومة. أما فيما يتعلّق بقضاء الحاجة، فإن ما يخرج من كلب في المرّة الواحدة يُعادل ما يخرج من ألف عصفور على الأقل!!

أصغرهم قال: ولكنّ الكلب ينبح أما العصفور فلا ينبح!

فقال له بحزم: والعصفور يُغني أما الكلب فلا يغنّي!

فردَّ الصغير: تريد غناء إذن؟!! (أوكي)! هكذا نطقَها بالإنجليزية، فبدتْ أشبه بتهديد. في حين كان ابنه الكبير ساهِمًا كعادته.

* * *

منذ طفولته، كان رشيد النِّمر يُفكِّر بوجود عصفور في البيت، عصفور له، وحين لم يستطع، راح ينتظر اللحظة المناسبة ليكون له واحد بعد أن أصبح أبًا؛ وها قد حصل على وظيفة لا تجعل العصفور يغيب عن باله! ولم تكن هناك مناسبة أفضلَ من إلحاح الأولاد الذي انبثق فجأة: نريد كلبًا!!!!



قال: ولكنني أريد عصفورًا؟

قال الصغير: ولكنني أحذّرك فلقد رأيت صقرًا يتجوّل في سماء المنطقة.

- وما الذي يمكن أن يأتي بصقر إلى هنا؟!

- لقد رأيته، وعليَّ أن أحذّرك.

- تحذِّرني من ماذا؟!

قال الصغير: ممكن نشتري عصفور وممكن ما نشتري عصفور؛ إذا ما اشترينا عصفور ما في مشكلة، وإذا اشترينا عصفور في مشكلتين!! ممكن نحطّه في البلكونة، وممكن نحطّه جوّه البيت؛ إذا حطيناه جوّه البيت ما في مشكلة، وإذا حطيناه في البلكونة في مشكلتين!! ممكن يكون في صقر في المنطقة، وممكن ما يكون في صقر في المنطقة؛ إذا ما كان في صقر ما في مشكلة، وإذا كان في صقر في مشكلتين!! ممكن الصّقر ما يشوفه، وممكن

يشوفه، إذا ما شافه ما في مشكلة، وإذا شافه في مشكلتين!! ممكن يكون الصقر جوعان، وممكن يكون شبعان؛ إذا ما كان جوعان ما في مشكلة، بس إذا كان جوعان في مشكلتين!! ممكن يجي يوكله، وممكن ما يجي يوكله، إذا ما أجا يوكله ما في مشكلة، بَسْ إذا أجا يوكله في مشكلتين!! ممكن يقدر يقتله، وممكن ما يقدر يقتله؛ إذا ما قدر يقتله ما في مشكلة، بس إذا قدر يقتله في مشكلتين!! ممكن أكون ما بحبّه، وممكن أكون بحبّه؛ إذا ما كنت بحبّه، ما في مشكلة، بس إذا كنت بحبّه في مشكلتين!! ممكن ما أزعل عليه، وممكن أزعل عليه، إذا ما زعلت عليه ما في مشكلة، بس إذا زعلت عليه في مشكلتين!! ممكن يروح الزّعل بسرعة، وممكن ما يروح الزّعل؛ إذا راح الزعل بسرعة ما في مشكلة، بس إذا ما راح في مشكلتين!! ممكن ما أُصاب بالكآبة، وممكن أصاب بالكآبة؛ إذا ما أُصبت بالكآبة ما في مشكلة، بس إذا أصبت بالكآبة في مشكلتين!! ممكن تروح الكآبة بسرعة، وممكن ما تروح الكآبة بسرعة؛ إذا راحت ما في مشكلة، بس إذا ما راحت في مشكلتين!! ممكن إتْأَثّر على حياتي، وممكن ما اتأثّر على حياتي؛ إذا ما أثّرتْ ما في مشكلة، بس إذا أثّرتْ في مشكلتين!! ممكن أَنْجَنْ وممكن ما أنجن؛ إذا ما انجنّيت ما في مشكلة، بس إذا إنجنّيت في مشكلتين!! ممكن أنجن على الآخِر، وممكن ما أنجن على الآخر؛ إذا ما انجنّيت على الآخر ما في مشكلة، بس إذا انجنّيت على الآخر في مشكلتين!! ممكن ما تحطّوني في مستشفى مجانين، وممكن تحطّوني في مستشفى مجانين؛ إذا ما حطيتوني في مستشفى مجانين ما في مشكلة، بس إذا حطيتوني في مستشفى مجانين في مشكلتين!! ممكن أحِب مستشفى المجانين، وممكن ما أحب مستشفى المجانين؛ إذا حبّيت مستشفى المجانين ما

في مشكلة، بس إذا ما حبّيت مستشفى المجانين في مشكلتين!! ممكن ما أفكِّر أهرب، وممكن أفكر أهرب؛ إذا ما فكَّرت أهرب ما في مشكلة، بس إذا فكرت أهرب في مشكلتين!! ممكن أحاول أهرب، وممكن ما أحاول أهرب، إذا ما حاولت أهرب ما في مشكلة، بس إذا حاولت أهرب في مشكلتين!! ممكن ما أقدر أهرب، وممكن أقدر أهرب؛ إذا ما قدرت أهرب ما في مشكلة، بس إذا قدرت أهرب في مشكلتين!! ممكن يشوفوني الحُرّاس وممكن ما يشوفني الحرّاس؛ إذا شافوني الحرّاس ما في مشكلة، بس إذا ما شافوني في مشكلتين!! ممكن يحكوا مع الشّرطة، وممكن ما يحكوا مع الشرطة؛ إذا حكوا مع الشرطة ما في مشكلة، بس إذا ما حكوا في مشكلتين!! ممكن أرجع ع البيت، وممكن ما أرجع ع البيت؛ إذا رجعت ع البيت ما في مشكلة، بس إذا ما رجعت ع البيت في مشكلتين!! ممكن أقدر أتخبّا منيح، وممكن ما أقدر أتخبّا منيح؛ إذا اتخبّيت منيح ما في مشكلة، بس إذا ما اتخبّيت منيح في مشكلتين!! ممكن يلاقوني الشّرطة، وممكن ما يلاقوني الشرطة، إذا لاقوني ما في مشكلة، بس إذا ما لاقوني في مشكلتين!! ممكن ما أنجن زيادة، وممكن أنجن زيادة؛ إذا ما انجنيت زيادة ما في مشكلة، بس إذا انجنيت زيادة في مشكلتين!! ممكن ما يعتبروني خطير، وممكن يعتبروني خطير؛ إذا ما اعتبروني خطير ما في مشكلة، بس إذا اعتبروني خطير في مشكلتين!! إمّا يلاحقوني لوحدهم، أو ما يلاحقوني لوحدهم؛ إذا لاحقوني لوحدهم ما في مشكلة، بس إذا ما لاحقوني لوحدهم في مشكلتين!! ممكن يستعينوا بأمريكا، ويمكن ما يستعينوا بأمريكا؛ إذا ما استعانوا بأمريكا ما في مشكلة، بس إذا استعانوا بأمريكا في مشكلتين!! يمكن أكره أمريكا، أو ما أكره أمريكا، إذا ما

كرِهت أمريكا ما في مشكلة، بس إذا كرهت أمريكا في مشكلتين!! ممكن أَسِب على أميركا، وممكن ما أسِب على أميركا؛ إذا ما سبّيت على أميركا ما في مشكلة، بس إذا سببيت على أميركا في مشكلتين!! ممكن تسمعني أمريكا، وممكن ما تسمعني أمريكا؛ إذا ما سمعتني أمريكا ما في مشكلة، بس إذا سمعتني في مشكلتين!! ممكن تزعل أميركا، وممكن ما تزعل أميركا؛ إذا ما زعلت أميركا ما في مشكلة، بس إذا زعلت أمريكا في مشكلتين!! ممكن ما يعرفوا مين أنا، وممكن يعرفوا مين أنا؛ إذا ما عرفوا مين أنا ما في مشكلة، بس إذا عرفوا مين أنا في مشكلتين!! ممكن ينسوا الزّعل بسرعة، وممكن ما ينسوا الزعل؛ إذا نسيوا الزّعل بسرعة ما في مشكلة، بس إذا ما نسيوا الزّعل في مشكلتين!! ممكن نقدر نصالحهم، وممكن ما نقدر نصالحهم؛ إذا قدرنا نصالحهم ما في مشكلة، بس إذا ما قدرنا نصالحهم في مشكلتين!! ممكن يهاجموا البلد وممكن ما يهاجموا البلد؛ إذا ما هاجموا البلد ما في مشكلة، بس إذا هاجموا البلد في مشكلتين!! ممكن ما يهاجمونا بقوّة، وممكن يهاجمونا بقوة؛ إذا ما هاجمونا بقوة ما في مشكلة، بس إذا هاجمونا بقوّة في مشكلتين!! ممكن يحتلّونا، وممكن ما يحتلونا؛ إذا ما احتلّونا ما في مشكلة، بس إذا احتلونا في مشكلتين!! ممكن يمسكوني، وممكن ما يمسكوني؛ إذا مسكوني ما في مشكلة، بس إذا ما مسكوني في مشكلتين!! ينسوا الموضوع، أو ما ينسوا الموضوع؛ إذا نسيوا الموضوع ما في مشكلة، بس إذا ما نسيوا الموضوع في مشكلتين!! ممكن ينتقموا منكم، أو ما ينتقموا منكم؛ إذا ما انتقموا منكم، ما في مشكلة، بس إذا انتقموا منكم في مشكلتين!! إنهم يقتلوكم أو ما يقتلوكم..

وصمت الصغير أخيرًا محاولًا التقاطَ أنفاسه ثم قال:
وليش اتحُطْنا في هيك موقف؟! اشتري لنا كلب وريِّحنا !!!!

عصفور في الشرفة

كانت الشُّرفة أوسَع مما هي الآن..

هكذا خُيّل إليه.

كانت تُطلُّ على مساحة أرحبَ وشرفات أقلَّ..

هكذا خُيِّل إليه.

كانت بشمس أكبر وقمر أقلّ شحوبًا..

هكذا خيّل إليه.

لكن امرأته قالت له: الشّرفة غير مسؤولة عن هذا، بل المسؤول نظرتكَ إليّ!

وحين التفتَ إلى امرأته تأكّد له ذلك.

- ألم أكن عصفورتكَ الجميلة ذات يوم؟! ألم تفعل المستحيلَ كي تُدخِلني القفص؟!

- بما أننا قد مُتْنا، فباستطاعتي أن أعترف بأنك لم تكوني!

- ولكننا لم نمُت بعد.

- وما الفرق، ما دمنا سنموت ذات يوم ثم نعترف لأنفسنا بهذا؟

- الفرق.. أننا لم نمُت.

* * *

كانت الأسرة عائدة من رحلتها الأسبوعية إلى نهاية الشّارع!!

شارعهم ذي النهاية الـ: DeadEnd

لم تكن الأُسْرَة قد بدأتْ تُفكّر بزيارة المقبرة التي ستنتقل إليها ذات يوم!!

(زوجته مطمئنة لذلك).

قالت له: قريبًا سننتقل إلى هناك. لماذا تصرُّ على التفكير بنفسكَ باعتبارا

مُخَلّدًا.

- أنا؟!

- نعم. أنت.

- أنا؟!

- نعم.. وكأننا سنفنى قبل أن تفنى بقرون.

- أنا؟!

- نعم أنت.

- ولكنني متُّ قبلكم!!

- هذا الكلام يمكن أن تقوله لنفسكَ، وليس لنا. نحن نعرفكَ. وستثبتُ الأيا أنك كنتَ تخطط منذ البداية لما نحن عليه الآن: موتنا.

حين وصل الأمر إلى هذا الحد، ابتسم فجأة.

- لماذا تبتسم؟

- لم أكن أعتقد أنني على هذه الدّرجة من العبقرية!

- اعترفتَ إذن؟!

- بأنني عبقريّ؟!

.....

كانت الأُسْرة عائدة من رحلتها الأسبوعية إلى نهاية الشارع، وحينما أصبحتْ تحت الشّرفة، صاحت امرأتُه وهي تنظر للأعلى: حمامة!! حمامة!!! ولم يكن بحاجة لخبرة متسلِّق جبال أو عالم طيور ليقولها من بين أسنانه مُغتاظًا: إنه صقر!

صعدوا الدّرجات راكضين، أشرعوا باب الشُّقة، باب الشّرفة. ولم يكن

الصّقر هناك، كان العصفور وحيدًا مُلقىً فوق أرضية القفص، وقد ازداد لون ريشه اصفرارًا.

- لو أحضرتَ لهم كلبًا، لما أكلته الحمامة! قالت له.

أما الأولاد فقد صمتوا جميعًا، وبخاصة الصغير.

في الليل، سأل الصغير أباه؛ وكان يبدو مهمومًا: هل يستحقُّ العصفورُ بكاءنا؟

فقال له أبوه: أظنّ ذلك!

- ولكنني لا أظن!

ونام كالملائكة.

.....

كان يعتقد أن الصّغير لن ينسى أبدًا مأساة كهذه.. مأساة عصفور يُقاوم الموتَ برِجْلٍ واحدةٍ بعد التهام الصقر لرِجْله الثانية.

أما امرأته فقالت له بمجرد أن ألقى برأسه إلى جانب رأسها: لم أكن أعرف أن الحمام يأكل العصافير من قبل!!

- ها قد عرفتِ!!

حين عاد الأولاد من مدارسهم راجِلين، كانوا مبهورين بمشهد تلك الحافلات المدرسيّة التي، كم أصبحتْ تشبه في الفترة الأخيرة حافلات السّجون؛ بعد أن اجتاحت الإعلانات الكبيرة صفيحها وزجاج نوافذها أيضًا. الحافلات المتدافعة، بعمائها هذا، في ساعات الظهيرة رافعةً اختناقات الازدحام إلى ذروتها. نظر إلى ابنته وجدها تسير خلفهم بتثاقل لم يره فيها من قبل.

كان يعرف أنه سيقف أمامها أعزلَ بعد لحظات، وهي تحدّق في عينيا

مباشرة، عاقدةً يديها، وزامّة شفتيها، بما يُذَكِّر بلوحة موديلياني: (الصغيرة بالثوب الأزرق).



قبل أيام أخذها للطبيب، ولم يكن يريد سوى شيء واحد: أن يُثبتَ لهم أنها ترى أكثر من الجميع، تلك التي يقولون عنها بأنها غير قادرة على رؤية شيء أبعدَ من أرنبة أنفها.

سألها الطبيب: لماذا أنتِ هنا؟!

ردَّتْ: لا أعرف!!

وكان رشيد النِّمر يعرف أنها تعرف، وحين فحصها قال له: نظرها ستة على ستة في العين اليمنى وثمانية على ستة في عينها اليسرى!

- وما الذي يعنيه هذا؟

- يعني أنها ترى أكثر مني ومنك!

حين عاد للبيت كان رشيد النِّمر يسير إلى جانبها مرفوع الرأس، كما لو أنه يملك طائرة (أواكس) خاصة!

.....

قلنا!!: حين سمع الأولاد الغناء من تحت الشرفة، ارتفعوا في الهواء، كما لو أنهم يريدون الطّيران نحو الشّرفة. في حين تسمّرت الصغيرةُ في مكانها للحظات، قبل أن تعود لمواصلة سيرها.

اندفع الأولاد يتقافزون فوق الدَّرجات فرحِين. أشرعوا البابَ بسرعة، كانوا يلهثون، اندفعوا نحو أبيهم يُقَبِّلونه؛ أمام صمت أمهم. وبلهفة ضاعفَها عدمُ قدرتهم على التقاط أنفاسهم سألوه معًا: متى سيأكله الصقر؟

- لم أشتره ليأكله الصّقر، بل ليغنّي.

- على مين بتضحك؟! قال الصغير.

- ليس عليكم بالتأكيد.

- إذن على نفسك!

- نعم!!

* * *

ونام الصغار كالملائكة.

* * *

في آخر الليل، مضى لسرير ابنته، اقترب بهدوء، وهاله أن عينيها كانتا مشرعتين على اتساعهما. تراجع فزِعًا.

* * *

كان وحيدًا في البيت، مع امرأته،

رغم أن ابنه الكبير لم يعُدْ يغادر غرفته منذ سقوطه المدوّي للمرّة الثانية في امتحانات الثانوية العامة. ولذا، كان لا بدَّ، وقد باتوا يخشون عليه كثيرًا، من أن يشتروا له جهاز رسيفر خاصّ يتيحُ له التجوّل في الفضاء، بعد أن ضاقتْ عل الأرض!

امرأته بجانبه، ولم تكن تُضيِّع أيَّ فرصة تُتيح لها الاحتكاك به: (لعلّ وعسى!!): العصفور في الشّرفة يُغني. قالت، تشجِّعه على الاقتراب منها

أكثر.

- والولد في غرفته. ردَّ عليها بغضب.

- وما الذي يُغضبكَ، ما دام الولد هناك مبسوطًا في غرفته، والعصفور يُغني في قفصه؟!

نظر إليها بغضب أكبر، وبحجّة الاطمئنان على عصفورهم الذي يُغني، راح يفتح باب الشرفة وينظر إليه بين فترة وأخرى.

عند الظّهيرة،

صمتَ العصفورُ فجأة.

أشرعَ بابَ الشّرفة بسرعة..

وهناك فاجأ الصقرَ مُتَلبِّسًا، ممسكًا برأس العصفور، وهو يقف على سطح القفص ويلتهم دماغه بتلذّذ بارد مجنون.



نظر إليه الصقرُ، دون اكتراث.

سألت امرأته: ما الذي يحدثُ، هناك، في الخارج؟

وظلّ صامتًا.

وعندما أحسَّ الصقرُ بأن ذلك الرّجل سيظلُّ واقفًا بالباب، استدار إليه بكامل جسمه في حركة تهديد لا تخفى.

بهدوءٍ أغلقَ رشيد النِّمر الباب، كي لا يُزعجَ الصقرَ أكثر.. وجلس إلى جانب امرأته المُنكَبَّة على إيجاد الكلمة اللّغز في لعبة الكلمات المتقاطعة التي لم تُنهها في أيّ يوم!

- أظننا نستحقُّ فسحة نستريح فيها الآن. قالت له.

- ولماذا الآن بالذات؟

- لأن كلَّ شيءٍ قد هدأ. أليس هذا ما تنتظره؟!

هزَّ رأسه، ولكنّه لم يتحرّك من مكانه.

... ...

حينما عاد الأولاد من مدرستهم، كان أول ما فعلوه، مثل كلِّ يوم، أن حدقوا في الشّرفة باحثين عن العصفور.

وحينما لم يسمعوا صوته صعدوا الدّرجات بسرعة أكبر.

- هل أكله الصقر؟! سألوا أباهم.

- أكله.

- احكِ لنا كيف أكله الصقر. إن كنتَ تُحبنا فعلًا، احكِ لنا كيف أكله!

- وهل أكله الصقر فعلًا هذه المرّة أم الحمامة؟ سألت امرأته.

هزَّ رأسه، ولم يقل شيئًا.

- تأكلون أولًا، ثم أحكي لكم كيف أكله الصّقر.

- لن نأكل إن لم تقل لنا كيف أكله الصّقر!!

ورأى ابنته تنسلُّ بعيدًا بخطى ميتة..

- كنتَ سترتاح، لو اشتريتَ لنا كلبًا؛ كنت سترتاح من أن تخبرنا حكاية العصفور الذي أكله الصَّقر.

بهدوء راح يحكي لهم عن العصفور المعلَّق في القفص مثل رجُل مشنوق، وعن الصّقر الذي كان يلتهمه بتلذذ غير عاديّ، وعن النظرة التي ألقاها الصَّقر عليه، فأحسَّ بأن دوْرَه قد اقترب، ما جعله يُقفل الباب بهدوء. وعندما انتهى، وقد كان سعيدًا طوال الوقت، وهذا ما حيَّره، قالوا له: لقد ورّطّنا مع الصّقر.. نعني ورطتَ نفسك. أرنا كيف ستخرج من مشكلة كبيرة كهذه.

ونهضوا للطّعام شامتين.

.....

لم ينم تلك الليلة، ولم تنم امرأته.

- إذا أكلكَ الصّقر، لن أجد من يتزوجني! قالت له. وأدارتْ وجهها. ثم كيف يمكن للأولاد أن يكونوا فرحِين إن لم تكن هناك حكاية عن صقر أكلَ عصفورًا.

نظر إليها فتأكّد له أنه لم يعد فيها ما يُذَكّره بفتاة عرفها ذات يوم.

قال لها: سأجد حلًا.

فردَّتْ: بل أريد حلًا!

...

ولم يكن الأمر صعبًا.

في صباح اليوم التالي ذهب واشترى قفصًا كبيرًا مليئًا بالعصافير.. لم يدفع كثيرًا، فقد كان يعرف، أن حملةَ مطاردة العصافير قد ملأت جيوب الأولاد بكثير من النقود، بعدما أعلنت الحكومةُ أنها ستدفع عشرين قرشًا مقابل كلَّ عصفور حيّ أو ميت يحضره أيّ شخص لأي مركز أمن في حارته أو مدينته أو

قريته، وقد امتلأت الجدران وأعمدة الهاتف والكهرباء بالملصقات التي تشجعهم على ذلك. ولم يقف الأمر عند ذلك، إذ انتشرتْ دورياتُ شرطة محمولة وراجلة، مزوّدة بأقفاص كبيرة لتسهيل استلام العصافير من صائديها؛ ولم يكن ثمة إجراءات رسمية أبدًا. فقط تسليم واستلام!

لكن بائعي العصافير، دخلوا، سرًّا، في منافسة مع الحكومة، فدفعوا قرشين أكثر. ولم تُعِرِ الحكومةُ الأمر اهتمامًا يُذكَر، فلم يكن ثمة بائعو عصافير في كلِّ مكان، واعتبَرتْ دخول هؤلاء على خطِّ البيع نوعًا من أنواع الدّيمقراطية! واقتصاديًا، نوعًا من أنواع الخصخصة! أو التدّرب عليها. لكنها وضعتْ قانونًا صغيرًا: (لسلامة الزّبائن، على كلِّ صاحب مطعم أن يلتزم بشراء العصافير من مذبح الحكومة مباشرة!)

وهكذا، بدت القسمةُ عادلةً تمامًا. إذ لم يغضب كبارُ تُجّار العصافير، ولا تغضب الحكومة، ولم يغضب الشّعب الذي كانت تُصيبه، بين حين وآخر، شهوةُ وجود العصافير متقافزة في أقفاص على شرفات المنازل وجدرانها، مع تدني أعداد العصافير الطّليقة شيئًا فشيئًا، أو شهوة تناول وجبة عصافير شهيّة في البيوت، نظرًا لارتفاع أسعار مثل هذه الوجبات، كما هو معروف، في المطاعم.

باختصار..

تعاملت الحكومة مع العصافير كالدّجاج. الدّجاج الذي يمكن أن يشتريه الناس من السّوق، أو أن يشتروه ناضجًا من مطعم (السّلام) أو من (كانتكي).

لكن الناس كانوا يعرفون، بحكم خبرتهم الطويلة، أن الحكومة لا تسمح باقتناء العصافير عبثًا. وأكّد البعض أن هناك مِلفات تُفتح لكل من يشتري عصفورًا وقفصًا في آن!

* * *

حين رأت امرأته القفص الضَّخم ممتلئًا بالعصافير، صرختْ: رحنا في داهية! هل جُننتَ لتشتري كلّ هذه العصافير ومعها القفص؟! كان يمكن أن تصنع القفص على الأقلّ، كي لا يفتحوا مِلفًّا لكَ ولأولادك ولأولاد أولادك وربما يضعون اسمي فيه!!

- اطمئني. قال لها. لقد اتخذتُ جميع الاحتياطات.

- وما الذي قلته لهم؟

- لدينا وليمة كبرى، دعوة مهمّة بمناسبة عيد زواجنا العشرين!

- ولكننا متزوجان منذ واحد وعشرين عامًا!

- لا عليكِ، لن يطلبوا منّا عقد زواجنا ليتأكّدوا من أمر كهذا! ولكي يطمئنوا قلتُ لهم: سأعيد القفص صباح غد.

- وهل ستعيده فعلا؟

- بالطبع.

- الحمد لله. ولكن هل أحضرتها فعلًا لكي نحتفل بعيد زواجنا؟

- بالطبع. ولكنني قررتُ أن أدعو واحدًا فقط.

- تدعو واحدًا فقط، بمناسبة العيد العشرين لزواجنا؟!!

- نعم.

- كان عليك أن تدعو عشرين شخصًا على الأقل، كي أحسّ بأنكَ لم تزل تُحبّني! ثم من هو هذا الواحد؟!

- ألم تفهمي بعد؟ الصّقر!!

- تهدر هذه الأموال كلّها من أجل صقر. دعنا نأكل شيئًا منها على الأقل،

دعنا نفاجئ الأولاد بعشاء مُعتَبر يفتح شهية أدمغتهم كي تصبح أكبر، فلعل الأجنحة تساعد في ذلك.

- لا.. هذه للصقر.

- أنتَ لم تعد تحبني.

- وكيف عرفتِ؟

- عرفتُ، وهل تحتاج مسألة كهذه إلا تفكير؟!

- إذن، أنتِ لستِ بحاجة لأكل عصافير أبدًا!

- ولماذا؟

- لأن عقلكِ كبير أصلًا!

- أفحمتني!

- وهكذا سأفحم الأولاد إن طلبوا وجبة كتلك!

- ولكنهم لن يطلبوا، لأنهم يريدون حكاية جديدة كلّ يوم؛ حكاية يمكن أن نسميها: (ألف عصفور وعصفور).

- كيف لم أفكر بهذا؟! (ألف عصفور وعصفور)!

- وتقول إنني لا أساعدكَ بشيء، ها قد ألهمتكَ فكرةً عظيمة!

- ستكونين عظيمة، إن قلتِ لي: ما الذي أفعله بفكرة عظيمة كهذه؟!

- الصحيح، لا أعرف.

- ولذلك، أنا موجود، لأقول لكِ.

- ما الذي ستفعله بفكرتي؟

- سأصبحُ كاتبًا.

- بعد ما شابْ ودّوه للكُتّاب!! وما الذي سنجنيه من ذلك؟

- سنجني عصفورين.

- ومن أجل عصفورين نُضحّي بكلّ هذه العصافير؟! هل جُننتَ؟

- لا، بالتأكيد.

- فسِّرْ لي الأمر إذن!

- العصفور الأول، كوني سأصبح كاتبًا.

- والعصفور الثاني؟ سألته شامتة.

- العصفور الثاني لأُقنعَ الحكومةَ إذا ما داهمتنا ذات يوم بأنني لم أكن أحتفظ بالعصافير لنفسي، بل لأُعدَّ لها ميتات أكثر قسوة من ميتاتها في المسالخ العامة!

- أتعني لأنكَ تطعمها للصقر؟

- أجل.

- ومن قال لك إن الحكومة ستقبل بهذا؟!

- سأقول لها إذن (لأُسلّي الأولاد قليلًا!) إنهم أولادٌ آخر الأمر.. أليس كذلك؟!

- أنتَ حُرّ، ولكن لا تذكُر اسمي على لسانكَ أو في الحكايات التي ستكتبها.

* * *

حين ذهب للنوم سعيدًا، بعد أن أخبر أولاده بالطّريقة التي أكلَ فيها الصقر عصفورًا من جديد، انتفض في العتمة.

- ما لكَ؟ سألته زوجته ووجهها للحائط.

- هل تعتبر الحكومة الصّقر من فئة العصافير أم لا؟!

وعندها صرخت:

- رحنا بداهية!

أضاء النُّور، مضى نحو الصَّحيفة التي نشرتْ قرارَ الحكومة المتعلِّق باصطياد الطيور. لم يجد أيَّ ذِكْر للصّقور. كان القرار غائمًا، عامًّا، ودقيقًا في آن. فالطيور تعني كلّ ما له جناح. أليس كذلك؟! ووجدَ نفسه يجيب: نعم!

في دوّامة الأفكار التي راحتْ تعصفُ به، وجد نفسه يدور ويدور، إلى أن خطرت له تلك الفكرة المجنونة: سأذبح ما تبقَّى منها الآن. وفعلَها. انتظر الصباح، خرج للشّرفة كما لو أنه يريد أن يُعْلِنَ للبشرية حُكْمًا صدرَ ببراءته لكنه ما إن أشرع بابها حتى وجد نفسه وجهًا لوجه مع الصّقر. ألقى له العصافير الذبيحة. فلم يلتفتْ إليها. تذكّر أن الصقور لا تأكل إلّا ما تقتل بنفسها. هكذا قرأ ذات يوم.

وقبل أن يتراجع، كان الصّقر قد حَطَّ على كتفه.

بصعوبة أدارَ وجهه نحوه، وهو على يقين أن أولَ ما سيفعله هو أن يلتهم عينيه. لكنّ الصقر لم يفعل ذلك. ظلَّ في مكانه، إلى أن استيقظتْ زوجته وأتى أولاده، بمن فيهم ابنه الكبير.

حين أبصروا الصّقر على كتف ربِّ البيت، تجمَّدوا في أماكنهم، وكأن على أكتافهم الطَّير أيضًا! وكان ردّ الفعل الوحيد تلك الدّمعة الصامتة التي انحدرت على خدِّ ابنته.

بدأ بالتهامه،

وما إن رأوا ذلك، حتى لانتْ قاماتهم وراحوا يتقافزون فرحِين؛ في الوقت

الذي راحت فيه زوجته تُطْلِقُ سيلًا من التعليقات الشّامتة!
لم يكن قد تبقّى ما يُذَكِّرُهُم به سوى هيكله العظميّ.
وبسرعة غير عادية التهم أولاده؛ وعندها أدركت زوجته أنها ستتعذّب كثيرًا، إذ من أين لها أعضاء طريّة كأعضائهم.
التهمها وهي تنظر إليه دَهِشَةً، إذ لم يسبق أن أكلها صقرٌ من قبل!
طار.
وهكذا بدأت حياتهم الجديدة.

الخطّة

- أوَلَم تقل إنك أنتَ الذي قتلتَهم؟! سأله صاحبه الأخير.

- نعم. لقد قلتُ ذلك.

- ولكنني أفهم من كلامكَ أن الصّقر هو الذي التهمَهم!

- وأين ذكاؤك؟! مَن الذي أتى بالصّقر؟!

- أنتَ بالطبع؛ ولكن لماذا تركته يأكلك؟

- وكيف كان يمكن أن يُصدِّق أحدٌ أنني لم أقتلْهم، إن لم أسمح له بأن يأكلني؟!

- أتعرف، أنت تفاجئني على الدّوام.. ولكنك هذه المرّة تفاجئني بشيء جديد.. جديد تمامًا!

- وما هو؟

- إنك مقنع. ولكن هل هناك خطط معينة بعد الموت؟! أعني ما الذي تفكّر فيه الآن؟!

- لا شيء. كلّ شيء سيسير كما كان دائمًا، بل ربما بطريقة أسهل أتوافقني؟!

- لا أستطيع أن أجزم في أمر كهذا!

- ولماذا؟ أنت صاحبي ومن المفترض أن تعرف!

- ولكنني لم أمُتْ بعد؟!

- رغم أنني لا أصدِّقكَ في هذه، لأنني لا أملكُ الدّليل القاطع، إلا أنني كنت دائمًا مُعجبًا بك؟

- أفهم ذلك، ولكنني لم أسألكَ.. لماذا؟!

- لقد نجحتَ في أن تظلَّ خارج القفص، وها أنت تنجح للمرّة الثانية، وتظل على قيد الحياة. ولكن، هل يمكن أن تقول لي ما السرُّ في هذه النجاحات المتواصلة؟!

- أبدًا. أنت تعرف، لم أجد المرأة التي تقبل بي ولا طريقة الموت المناسبة بعد!

- لكنّك لم تستسلم! لا تقل لي بأنكَ استسلمت!

- بالتأكيد لا!

- وما الذي تفعله لكي تظلّ هكذا على قيد الأمل؟!

- أَنتَظِر. أنت تعرف في حالات معقَّدة كهذه، ما عليك إلا أن تنتظر.

- هل تعني أنني خسرتُ ذلك الشيء الرّائع الذي يُسمى الانتظار حين تزوجتُ، وحين متُّ؟!

- ربما. ولكنكَ رغم ذلك ما زلتَ تنتظر شيئًا ما، لا تقل لي إنني على خطأ!

- وما هو؟

- إن قلتُ لكَ ما الذي تنتظره، فإنني سأعترف لك بالسرِّ الذي لا أحبُّ البوح به!

- وهل هنالك أسرار بيننا، بعد هذا العمر.. أعني بعد هذا الموت؟!

- انتبه، يمكنك أن تتحدّث الآن عن نفسكَ باعتبارك ميتًا، أما أنا فالأمر مختلف؟!

- هل تعني أن صداقتنا ستنتهي لمجرد أنني مُتُّ؟!!

- لا، لا أقول ذلك. فمن تجمعهم الحياة لا يُفرقهم الموت. ألا يقول الناس ذلك؟!

- لا أعرف إن كان الناس هم من يقولون ذلك أم أحدٌ آخر! ولكنني أفهم من كلامكَ هذا أننا سنلتقي مرة أخرى!

- ما الذي تقوله يا رجل، نحن سنلتقي دائمًا.

- أرجو ألّا يكون كلامكَ هذا مجرد كلام.

- تأكّد أنني أعني كلَّ حرف فيه.

- وكيف سأتأكّدُ من ذلك؟!

- عليكَ أن تنتظر، ها قد أُتيحَتْ لكَ فرصة أن تنتظر، أنت الذي كدتَ أ تزرع اليأس في قلبي وأنت تقول إنك ضيَّعتَ الانتظار، ولذلك أؤكد لك: إذا أحسستَ بأنني قد تغيرتُ، فإن عليكَ أن تطلب مني دون أيّ إحراج أن أموت!

- أهذا وعد؟!

- بالطبع، بل أكبر، إنه عهد.

ما بعد البداية

حاولَ أن يستعيدَ الاتجاهات التي أشار إليها الرّجل العجوز.

لم يتذكَّر شيئًا. اختلط الشمال مع الجنوب مع الشرق.

الجهة الواضحة الوحيدة التي لا خلافَ عليها كانت حركة يده باتجاه السماء. وقد بات حَذِرا من أن يُردد كلمة (الغرب) لأنها الاتجاه الممنوع.

خُلوُّ المركز من الزائرين وأعين كاميرات المصوِّرين الصحفيين المتطفِّلة لأكثر من أسبوع، ساعده على أن يُفكِّر بهدوء. وأول الأشياء التي اكتشفَ أنه بحاجة ماسّة إليها كانت البوصَلة.

اشترى بوصلة.

(ليس ثمة مبرر للقول بأنه تعذَّب حتى استطاع الحصول على واحدة محترمة غير قابلة لأن تُضَلَّلَ بسهولة، أو تُضلله!)

في صبيحة اليوم التالي كان أول شيء يفعله، هو أن يأتي بالطّاولة ويضعها في وسط السّاحة؛ يضع البوصلة عليها مستوية تمامًا؛ ويحدد الاتجاهات بدقّة رحَّالة.

بعد أن اطمأن تمامًا.. جلس ينتظر.

زووم إن... آوت

زحامُ الظلالِ
يرجُّ البيت
كانت خائفةً
فالأحلام التي حُشِرَتْ معها في المكان الضيّق
كانت عمياء بأنامل محترقة

ليس في الأمر ما يشبه الكابوس
أو وصول موكب مزركش بالأعلام بين صفَّين من قتلى يبتسمون
أو رؤيا مرعبة لا يجرؤ على إعادتها
رؤيا مرَّت، ليلة أمس، وعكَّرتْ شهوةَ أطرافه للقيد
وعنقه للمشنقة!
ثمة أشياء لا يستطيع قولها،
لا بدّ من أن يقولها أحدٌ الآن
ولكن لا بأس بمقدِّمة سريعة لا غير:
منذ زمن باتت الأفلامُ، كالأغاني، تطيرُ في الفضاء
وتُطلُّ من شاشات التلفاز طَوال الوقت
لكنه لم يكتشف أن قفاه قد تقرَّح لفَرْط ارتمائه أمام (أشلي جوود)



أجمل حسناوات هوليوود منذ عشرين عامًا..

إلّا حين قرأ في الجريدة حفلةَ الجَلْد التي أُعدَّتْ لذاك الأستاذ الجامعي فـ
بلد مجاور..

وقد استاء: فأيّ مؤخِّرة هذه التي سيفاجئهم بها لو أنهم قرروا ذات يوم أ
دوْرَه قد جاء، هنا.

هكذا نهض وحاول ترميم ما يمكن ترميمه

وزيّن المساحات الصغيرة السّليمة (من قفاه) بما يليق بسوط.

تلك الليلة التفَّ بجناحيْ نَسْر هرِم

وجبين رجُل تشريفات تعوَّد الانحناء لأيِّ سبب.

وبلا أيّ خوف،

قرر أن يحلم بشيء يؤكِّد أنه أفضل من ظنِّهم به.

لكن الأحلام تخذل دائمًا، كالأصدقاء الذين يموتون أولًا، أو يموتون فيما بعد، ويتركوننا خلفهم ننتظرهم في تلك الأماكن الغامضة.

وهذا ما حدث!!

على شكل سيناريو عجيب لفيلم قصير كان الحلم الذي عَبَر مخيلته:

في الخلف دخانُ معركة

في المقدمة عربات عسكريّة تتقدّم ملتفَّة بالغبار

في الأفق صيحات نصر

لكن المشهد برمَّته لا تميزه العين

(ذكَّره ذلك بمشهد من (لورنس العرب)

حين يعود لورنس من أقصى الصحراء، بعد أن أنقذ الرّجل الذي تاه..
الرّجل الذي سيوجِّه إليه لورنس، نفسه، فوهةَ مسدَّسه ويقتله أمام الجميع، فيما بعد، كي يلْجِمَ الفتنة!)

العربات تتقدّم بالوتيرة نفسها

ولكن الشيء الذي يُحيِّره

أن الجهات اختفتْ جميعها، ولم تكن ثمة جهة هناك غير الغرب

أما الذي حيّره أكثر فهو:

أنه لم يكن يرى في تلك العربات سوى رجل وحيد يرفع يده بعلامة النصر.

تنحرف العربات وتتوقّف

وبصعوبة، يمكن أن يرى المرءُ أرجُلَ جنود تطلُّ من الصّناديق

ولن يمضي وقت طويل قبل أن يرى ثقوبًا واسعةً في أكثر من جبين!

تتلاشى الضجّة قليلًا قليلًا

وتصمت محركاتُ السّيارات التي ظلّتْ تدور وتدور حتى نفاد الوقود

(كان الحلم بالنسبة إليه لا يقلُّ طولًا عن أسبوع)

وحيَّرَهُ أن فيلمًا طويلًا إلى هذا الحدّ، يمكن أن يشاهده الناسُ دون أ تهترئ أقفيتهم!

وحينها، خطر له أن (أشلي جوود) ليست السبب فيما يتعلّق بقفاه..

كان الأمر بالنسبة إليه أكثر جلالًا من أن تطرف عينه

فيخسر شيئًا من المشهد

أو ينتبهوا لذلك، فيُقتادَ إلى حيث اقتادوا الأستاذ الجامعي نحو السّاحة العامة

هكذا واصلت العربةُ تقدُّمها

وهكذا كانت تزدادُ قامة الرّجل الملوّح بعلامة النّصر ارتفاعًا

والكاميرا تتقدّم نحوه في لقطة مقرّبة، أو بتلك الحركة التي يطيب للعاملين في مجال السينما أن يدعوها: (زووم إن)

وعلى مهل تروح ملامحه تملأ الشاشة بهدوء

(عند ذلك أوشك رشيد النِّمر أن يصحو فَزِعًا

هو الذي لم يكن يتوقّع أن يجد نفسه، فجأة، وجهًا لوجه مع قائد كهذا.. لكنّه تذكّر أنه لم يكن ذاهبًا للنّوم كي يصحو!)

وسوءًا فعل!!

تراجعتْ الكاميرا للوراء

أو بتلك الحركة التي يطيبُ للعاملين في مجال السينما أن يدعوها: (زووم آوت)

راحتْ ملامحُ القائد العسكري تبتعد قليلًا قليلًا

وفي الوقت نفسه، بدت المساحةُ الممتدّة خلْفه مكتظة بحدائق لم ير أحدٌ مثلها من قبل:

كان الطريق أمامه أبيض كالثلج وناصعًا

وفي المساحة الضَّيقة على جانبي الشارع، كان يمكن للمرء أن يرى بعينيه كيف تكبر الأزهار خلال ثوان معدودات

دون أن تتجرأ، بالطبع، على رفع أعناقها كي تنظر إليه (القائد) مباشرة.

تراجعت الكاميرا أكثر، فبدا المشهد لائقًا بحلم يدَّخره المرء لاستقبال قائد

عائد من الحرب

وعلى جانبيه أكثر من شمس!

فجأة، ينكشف المشهد عن منصَّة وأوسمة تتلألأ

وشرائط بألوان زاهية تليق بالبزّة البيضاء التي لم تَعْلَقْ بها ذرةُ غبار

(قِصَرُ النَّظر وحده، ربما جعل رشيد النِّمر يخلط بين اللون الأخضر المُغْبَر لبذّات المعارك ونصاعة الحليب في بزّة الاحتفال!)

تتوقّف العربة

وما يمكن أن يقال عن البزّة البيضاء، يمكن أن يقال هنا، أعني يُشاهَد، في الحذاء الأبيض الذي كان في البعيد الأعمى ليس أكثر من بسطار!

بحركة سريعة أشار القائد إلى صدره

(أن انهوا الأمر بسرعة)

ولم يكن هناك أحد

لكن النياشين

ومن تلقاء نفسها

راحتْ تتسلَّقُ قامته، واكتفى بعضها، وسط ذلك الزّحام، بركبتيه.

ألقى نظرة بعيدة إلى حيث كانت العرباتُ والغبار والدّخان ولم يُبصر غير الحدائق

ابتسم

ألقى نظرةً حيث كانت الثّقوب العميقة تتّسع كنوافذ في جباه الجنود.

يهبط من على المنصَّة

هل هنالك بقعة دم على طرف رباط فرْدة حذائه اليمنى
أم أنها غير ذلك؟!
لا أحد يستطيع أن يؤكد الأمر، حتى الكاميرا التي راحت تقترب في حركة يطيب للعاملين في السينما أن يدعوها: (زووم إن)

يصعدُ للعربة

وللمرة الأولى يُدرك رشيد النِّمر أنها كانت تسير وحدها
أو أنه كان يقودها واقفًا بمعجزة لم يسمع بها أحدٌ من قبل.
تتراجع الكاميرا قليلًا قليلًا
فيتَّسع المشهد خلْفه مُسْفرًا عن عربات ودخان
وثقوب غامضة في الجباه
وغباااااار
وتظل تتراجع، وقد دخلتْ العربةُ في شارع ضيّق طويل؛ وكلّما توغَّلت فيا تلاشت السّاحة خلْفها وظلّت المنصَّة وحدها مشعّة ببياض غريب.

مشهد كهذا لم يكن ينقصه إلّا غيمة متواضعة بمطرها الخفيف
ودون أن تفارق الكاميرا جسده تَتَنزَّل القطراتُ بالتَّصوير البطيء، تنحدر برقّة، وتتقافز من حافة طاقيته العسكرية ذات البروز المجدول بالحرير الأحمر والأخضر،
كشرفة
وتتقافز كالكرات فوق النجوم التي تتزاحم فوق كتفيه

تنحدر نحو أوسمته

وتنحدر

حتى تلامسَ الأرضَ فتقفزُ من جديد لتغدو أعلى من قامته، مكررةً المشهد.

وللحقيقة، لم يكن غاضبًا من المطر كما يحدث عادة

حين تعبر غيمةٌ تافهةٌ وتعكِّر صفو احتفال في ساحة مليئة بالعشب

لكن التقْطيبة الوحيدة التي سكنتْ جبهتَه خطفًا

كانت الرائحة الغريبة سببها الوحيد

إلى ذلك الحدّ الذي أوشك فيه أن يتذكَّر شيئًا ما، أليفًا،

شيئًا يعرفه تمامًا!!

تبتعد الكاميرا قليلًا قليلًا وهي ترتفع

وفي لقطة طويلة متَّصلة تتوارى عينها خلف نهاية الشارع الضيّق، وتدور في حركة نصف دائرية، حتى تعود لأوَّله، خلف العربة التي نراها مُدْبِرَةً، والساحة أمامها في البعيد ممتلئة بالسيارات العسكرية

والثقوب التي في جباه الجنود والغبار،

(كل من كان خلْفه قفز إلى الأمام، هناك، ينتظره)

لكن المنصّة اختفتْ

وهذا هو المهم

تصعد الكاميرا قليلًا قليلًا لتغدو في مستوى السطوح

وهنا

سيفاجئنا ما نراه

آلاف الأطفال الصّغار الذين تتراوح أعمارهم بين عامين وثلاثة عشر عامًا، يقفون في صفّين متقابلين على طرفي البنايات المحيطة بالشارع

فجأة يستديرون وأيديهم تمتدّ إلى أزرار وسَحَّابات بناطيلهم يغلقونها، مغمورين بذلك الحسِّ الرائع:

(لقد تخلصوا أخيرًا مما أوشك على تمزيق مثاناتهم الصغيرة!)

تتقدّم الكاميرا في تلك الحركة التي يطيب للعاملين في السينما أن يدعوها: (زووم إن)، نحو يديّ طفل صغير لا يستطيع أن يُغلقَ السَّحّاب)

وفجأة تتقدَّم من خارج الكادر يدان كبيرتان، وتحلّان المشكلة بخبرتهما الطويلة في هذا المجال!

وهنا يقفز رشيد النِّمر من نومه فَزِعًا

وقد أدركَ أن تلكما اليدين اللتين ظهرتا في مشهد الفيلم الأخير

ما كانتا، ويا للهول، سوى يديه!

تجوال

نظر رشيد النِّمر إلى ابنه الكبير، وقال له: بعض النظافة لن تضرُّك!

- بالتأكيد. إن كان هنالك ماء!

- أنظر إلى جارنا الدكتور. أنظر إلى تلك النّظافة التي تضيء ملابسه ووجهه، وتعلّمْ منه شيئًا.

- ما الذي سأتعلَّمه؟ سرقة الماء؟!

- ما الذي تعنيه بسرقة الماء؟!

كانت المدينة تعيش حالة إرباك لم يسْبق أن مرَّت بها من قَبل، حين اختلطتْ مياه المجاري بمياه الشُّرب، ولم يعد أحد قادرًا على امتلاك الجرأة لغسل وجهه أو فمه؛ وغدا العثور على قطرة ماء نظيفة أكثر صعوبة من اصطياد عصفور مُحلِّقٍ بيد مجرَّدة.

- الدكتور يستيقظ كلّ ليلة، وأراه بعينيّ من نافذتي المطلَّة على ساعات المياه وهو يعمل بسرعة.

- لا يمكنك أن تقول كلامًا كهذا عن أستاذ محترم، ورجل متديّن لا يفوّتُ صلاة الجمعة! ألا تراه من الشّرفة وهو ماض يرفُّ بالدّشداشة، كحمامة، قاصدًا المسجد على قدميه؟!

- لقد خرجتُ ليلة أمس، وتأكّدتُ من الأمر. إنه يقوم بإغلاق عدادات المياه السَّبعة ويُبقي عداد مياهه مفتوحًا؛ وعند الفجر، يعود ثانية ويُخفي آثار الجريمة!

- هل جننتَ. هل تعني أنه لا ينام أيضًا؟

- حين تُلقي علية تحيّة الصباح، حاول أن تشمَّ رائحته!

- وما بها رائحته؟

- رائحة بول.. خراء!

- وهل شممتها أنت؟

- وهل عليَّ أن أفعل كي أتأكد من أنه يسرق ماء المجاري؟!

* * *

حاول رشيد النِّمر أن يعمل المستحيل للتأكُّد من ذلك، إذ لا يُعقل أن يتمَّ حرمان الإنسان، بسبب الأنانية المفرطة، من المياه مهما كان طعمها ولونها ورائحتها! ظلَّ واقفًا خلف الباب، إلى أن سمع باب شقّة الدّكتور يُفتح، أشرع الباب بدوْره، وهو قابض على عنق مظلَّته المورّدة، وتبعه هابطًا الدّرجات بسرعة كي يتمكّن من اللحاق به قبل الخروج من بوابة البناية.

(ذلك يُسهِّلُ مهمّةَ أنفه في هذا الحيز الضَّيّق)

حين سمع الدكتور الخطوات المهرولة خلفه، زاد من سرعته (كعادة سكان البناية وبقية البنايات الذين باتوا يخشون لقاء جيرانهم؛ هذا اللقاء الذي قد يكلّفهم إلقاءَ تحيّة الصّباح أو المساء!!) لكنّ رشيد النِّمر فاجأه قبل أن يمدَّ يده لقفل الباب مُعترضًا طريقه تمامًا.

- صباح الخير دكتور.

- صباح النّور.

- كأنكَ متعب قليلا؟!

- لا، أبدًا، من قال ذلك؟!

واقترب منه أكثر وهو يتشممه.

حبس رشيد النِّمر نَفَسَهُ بسرعة. تراجع خطوتين، أشرع الباب الخارجيّ

للبناية، أطلَق كتلة الزّفير اللزجة التي أغلقتْ مجاري تنفُّسه، وعبَّ كمية هائلة من الهواء.

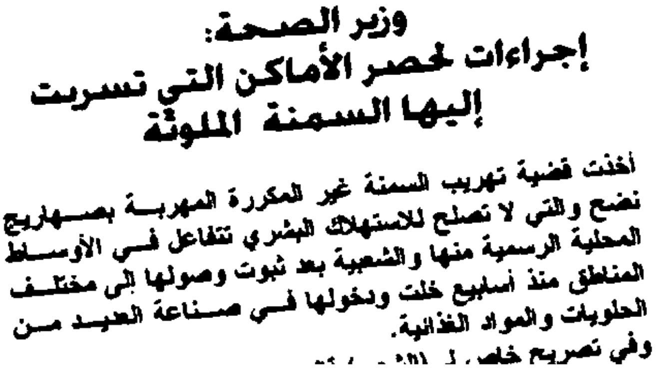
- هل أصابكَ سوء؟! سأله الدكتور مرتبِكًا.

- لا أبدًا، ولكن خيِّل إليَّ أنني شممتُ رائحة كريهة.

- هذا بسبب البول الذي يسقونه لنا ويجعلوننا نستحمُّ به أيضًا؟!

- ما الذي تعنيه بـ (نستحمّ) به أيضًا؟! هل هناك ما يكفي من المياه للشّرب كي نستحمّ هذه الأيام؟!

- لا أعرف!! أنتم تغلونها قبل شُرْبها، أليس كذلك؟! عليكم أن تنتبهوا لصحّتكم في مثل هذه الحالات، أليس كذلك؟! إنه لأمر مقلق فعلًا أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ فيما يتعلّق بالمياه، ألا يكفينا اكتشاف أطراف القوارض في الطحين، وحكاية السَّمنة التي شُحِنَتْ بصهاريج النَّضْح؟!


وزير الصحة:
إجراءات لحصر الأماكن التي تسربت إليها السمنة الملوثة

أخذت قضية تهريب السمنة غير المكررة المهربة بصهاريج نضح والتي لا تصلح للاستهلاك البشري تتفاعل في الأوساط المحلية الرسمية منها والشعبية بعد ثبوت وصولها إلى مختلف المناطق منذ أسابيع خلت ودخولها في صناعة العديد من الحلويات والمواد الغذائية.
وفي تصريح خاص ...

- لهذا لا تستطيع النّوم؟

- ما الذي تعنيه بكلامكَ هذا؟ أرجو أن تقول لي بصراحة ما الذي تعنيه، إذ كنتَ تعني شيئًا بكلامك هذا؟!

- أعني أن تكون مضطرًّا لمغادرة فراشك ليليًّا منذ بداية هذه الأزمة.

- كيف عرفت؟!

- ابني الكبير، تعرف، إنه لا ينام، وقد قال لي إنه يراك ليليًّا قلِقًا تتجوّل حول البناية!

- هذا صحيح، أنت تعرف حين تُفْتَقَدُ المياه النّظيفة فإن أقلَّ ما يمكن أن يسعى المرء للتمتُّع به: قليل من الهواء النظيف في الليل. وإذا ما أردتُ أن أكون أكثر صراحة، سأقول لك: إنّ جزءًا من هذا الخروج سببه أنني لا أستطيع النّوم بسبب هذا الانتظار المتواصل للحظة التي يبدأون فيها ضخَّ المياه؛ ولذلك تراني بين حوش العمارة وسطْحها بمجرّد أن تناموا.

- ما الذي تعنيه بقولك (بمجرّد أن ننام)؟

- لا شيء، لا شيء بتاتًا، ولكنّ ما يؤرِّقني أن الناس لم تعد تنتظر شيئًا هذه الأيام. أليس كذلك؟!

- ولكننا ننتظر في غرفنا؟! ردَّ رشيد النِّمر بغضب.

- هذا ليس انتظارًا، إنه أقلُّ من ذلك بكثير!

- بل إنه أكثر أهمية من المعني المُضْمر في انتظارِكَ!

- أرجو أن تُفسِّر لي الأمر لأنني لم أفهم!

- يكون الانتظار انتظارًا أعمق حين تكون أمام التلفزيون أو في ثياب النّوم، أما حين يكون في الخارج، فإنه يَفقد بعض معناه، ألا توافقني على ذلك؟!

- أنت تقول شيئًا أسمعه للمرّة الأولى. ردَّ الدكتور.

- أعني أنكَ حين تنتظر أمام الباب، أو على السطح، فإنك تفعل شيئًا محددًا هو الانتظار، أما حين تنتظر أمام التلفزيون أو في سريرك فإن الانتظار يكون كاملًا لأنك تكون مستسلمًا تمامًا، ولا تتوقّع وصول الشيء الذي تنتظره رغم أنك، في الحقيقة، لا تفعل شيئًا سوى الانتظار!!

- سأفكّر في الأمر، سأفكّر فيه جيدًا، وإذا ثبتَ لي أنكَ على حقّ فأعدُكَ أنتظر وصول المياه في السّرير، أو أمام التلفزيون. ربما في السّرير أفضل، أليس كذلك؟!

- أظن. أشكرك!

- تشكرني على ماذا؟!

- على أنك ستنتظر مثلي، ويكون انتظارك شبيهًا بانتظاري! هذه مسألة تعني الكثير بالنسبة لنا كجيران. قال رشيد النِّمر. وأضاف: ولكنني كنتُ أريد أن أسألكَ سؤالًا غريبًا وأنتَ رجُل عِلْم.

- تفضّل.

- هل يجوز الوضوء بمثل هذه المياه التي تصبُّ في خزّانكَ بعد أن ننام؟!!

- ما الذي تعنيه بقولكَ: بعد أن ننام؟!

- أنتَ، نفسك، دكتور، قلتَ إنك لا تتوقّف عن الحركة ما بين حوش العمارة وسطْحها حين ننام.

- أنا قلت ذلك؟! أنا؟ ردَّ الدكتور بغضب.

- ما دمنا مجرد 2 فقط هنا، فلا بدّ أن أحدنا قد قالها.

- ليس أنا! قال الدكتور بحزم.

- وليس أنا! ردّ رشيد النِّمر بغضب.

صمتٌ

- على أيّ حال، ليس هناك مُبررٌ لأن نتشاجر بسبب كلمات قالها سوانا ألستَ معي في هذا؟! سأله رشيد النِّمر.

- في هذه أنا معك!

- ولكن ماذا عن مسألة الوضوء؟!

- ها أنتَ تعود لتثير المشكلة من جديد!

- سأكتفي إذن برفْضكَ الإجابة إجابةً. ردَّ رشيد النِّمر.

- أشكرك على تفهُّمكَ، فبعض الأشياء لا يجوز الحديث فيها، وأنت أكثر عِلْمًا مني بهذا، أليس كذلك؟!

- ما الذي تعنيه دكتور بأنني أكثر عِلْمًا، منكَ، بذلك؟!

- أنت لديك تلك المسألة التي تعيشها يوميًا في المركز، أعني تلك الجهة، أبعدنا الله عنها، فلماذا تضيف إليها مسألة لا تقلّ إرباكًا!

- معك حقّ. تصوّر أنني سألتُ امرأتي أن تحدّد لي (صمتٌ) أن تحددَ لي تلك الجهة، تصوّر ما الذي قالته لي؟!

- ماذا قالت؟!

- عليكَ أن تتصوّرَ ما قالته لي؟

- ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر ما قالته لك!

- حاول، فقط حاول من أجل الجيرة على الأقلّ، وهذه الشّراكة في المياه!

- لن أحاول!

- حاول ولو لمرّة واحدة!

- صدّقني.. لا أستطيع أن أتصوّر ما الذي قالته امرأتك لك حول تلك الجهة الغامضة.

- هل تعني أن حماركَ تَعِبَ.

- ما هذه اللغة يا جار؟!

- أنا آسف دكتور، ولكن يبدو أنها بسبب تلك المياه التي نغسل بها أفواهنا.

- قبلتُ اعتذارك، ولكن أرجو أن تقول لي.. لننتهي من هذه المسألة.

- ماذا أقول لك؟ سأله رشيد النِّمر.

- تقول لي، ما الذي قالته امرأتك حين طلبتَ منها أن تساعدك في تحديد تلك الجهة.

- تصوّر!! لقد قالت لي: وهل عليَّ أن أقومَ، أيضًا، بعملكَ الذي عليك أن تقوم به؟!!

- هذا شيء رهيب يصدرُ عن زوجة. علَّق الدكتور. وأضاف: ولكن ما الذي تعنيه بقولها (أيضًا)؟

- الصحيح هذا ما يحيّرني!

- إذن لنعُد إلى مسألة ابنك؛ صحيح أنها أكثر غموضًا وتعقيدًا، إلّا أنه تبدو لي شبه مفهومة!

- ما الذي تعنيه (بشبه مفهومة) و(أكثر تعقيدًا)، و(أكثر غموضًا) كما لو أن تلك الجهة لا تكفيني لتضع هذه القضايا فوقها!

- لا أريد أن أربككَ أكثر، ولكنني أريد أن أقول لك: أظنّ، والله أعلمُ، أنا بحاجة لعلاج ما. هذا أكيد.

- أنت تعرف، ما زال يحاول رغم كلّ ما مرَّ به. أحيانا يذهب ليبيع بعض الأشياء الصغيرة، كبائع متجوّل، ولكن الناس مزعجون أحيانًا.

- أحيانا؟! بل دائمًا. أنا أقول لكَ ذلك بصفتي الإنسانية كجار، والعلْميا كأستاذ عِلم اجتماع!

- ما الذي تعنيه؟

- لا شيء..

- أرجو أن تقول لي بصراحة، ما الذي تعنيه إن كنت تعني شيئًا بكلامك هذا؟! قال له رشيد النِّمر بحزم.

- أبدًا. كنتَ بدأتَ التحدُّث لي عن ابنك. وأن الناس يزعجونه، كيف؟!

- أحيانا يبيع جوارب نسائية وحمّالات صدور وغيارات داخلية، وقبل يومين قال له أحدهم (عليكَ أن تفهم أنك لن تستطيع بيْع أيّ قطعة من هذه القِطع!! وحين سأله: لماذا؟ أجابه (لأنك تبيعها فارغةً، في حين تبيعها الفضائيات لنا طَوال الوقت ممتلئة!!) وحين عاد الولد للبيت اختلى بغرفته سبعَ ليال، وحين خرج، قال لي: فعلًا، إنهم يبيعونها ممتلئة، ويُعلِّمون الناس كيفية استعمالها أيضًا!! وصمتَ رشيد النِّمر ثم قال: لم تكن أكثر من جملة واحدة، تعليق واحد قَلَبَ حياة هذا الشاب الأليف! فهل تتصوّر مدى الانحطاط الذّي بلغه الناس هذه الأيام؟

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا، أرجو أن تقول لي بصراحة ما الذي تعنيه إن كنت تعني شيئًا بكلامك هذا؟!

- أبدًا، لا شيء!

- رغم ذلك، أصارحكَ: لا بدّ من علاج ما للولد.

- لأنه يراك في الليل تتجوّل حول البناية؟!!

- بل لأن سَهَرَه، وهو شاب في مقتبل العمر، إلى هذا الحدّ، يعني أنه يعاني من أرق مرعب، وربما من حالة اكتئاب، كما يبدو لي. واسمح لي بقول هذه الملاحظة القاسية: يبدو لي أنه لا ينتظر شيئًا!!

- لا أستطيع أن أؤكّد ملاحظتك هذه، لكن ما يجعلني مطمئنًا أنه سيبدأ

الانتظار الخاص به قريبًا، هو أنه ينتظر في سريره، كما أن ملابسه لا تفوح منها رائحة المجاري؟!

- ما الذي تعنيه؟ أرجو أن تقول لي بصراحة ما الذي تعنيه إن كنت تعني شيئًا بكلامك هذا؟!

- أظنني تأخرتُ كثيرًا عن موعد عملي؟!

- أظنني تأخرتُ أيضًا.

- بإمكاني أن أقلَّك إلى أقرب مكان بسيارتي، إن كنت لا تمانع. وبعدها تواصل طريقك نحو عملك. عرض عليه الدكتور.

- شكرا لك، لستُ متأخرًا إلى هذا الحدّ!

- لستَ متأخرًا إلى هذا الحدّ؟ أرجو أن تقول لي بصراحة ما الذي تعنيه إن كنتَ تعني شيئًا بكلامك هذا؟!

- أبدًا، لا شيء.

حفلة الصّيد

بعد أيام، فتح عينيه بصعوبة، وجدَ نفسه في السّرير، وكذلك زوجته، نهض وتفقَّد أولاده، وجدهم في فراشهم؛ ابنته، حرص على ترتيب اللحاف فوق جسدها..

(لسبب ما كان يشكّ في مسألة موتها!)

حين نهضوا أخيرًا، راحوا يتأمّلون الجدران حولهم بصمت، وقبل أن يلقوا عليه تحية الصباح. بدأوا بكاء جماعيًا أدرك معه أنهم فهموا أخيرًا أنه قاتلهم.

كان على وشك أن يعترف، حينما هبَّ أحدُ أولاده الموتى وأطبقَ بأصابعه الصغيرة على عنقه.

وللحظة انبثقتْ في داخله نافورة الأبوة، فسالَ دمعُه.

- هل هذا يعني أنك تحسُّ بما نحسّه؟! سأله الصغير.

- وأكثر. أجاب.

- إذن، اذهب واشتر لنا كلبًا.

- تريدون كلبًا إذن؟

- نعم، نريد كلبًا لا يأكله الصّقر.

- ولا شيء غير هذا؟

- لا شيء غير هذا.

- لا عليكم.. كونوا مطمئنين.

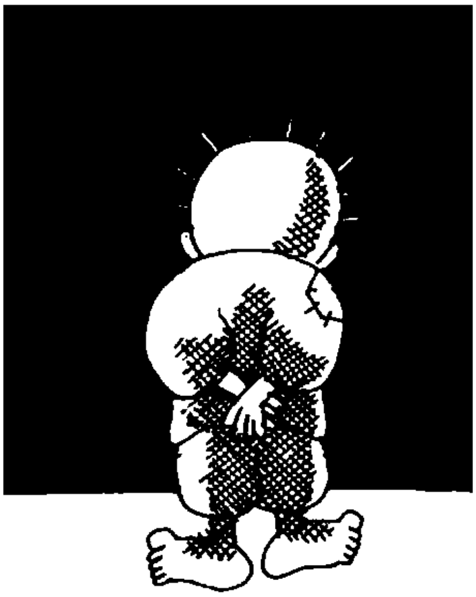
- أكيد؟

- أكيد.

كانت تلك فرصته المثالية التي لا تتكّرر كثيرًا في حياة المرء: أن يطلب

الأولاد شراء كلب للمرّة الثانية!

التفتَ إلى ابنته، كانت تنظرُ للدّاخل بصمت عاقدةً يديها خلف ظهرها بمـ
يُذَكِّر كثيرًا بحنظلة - طفل رسومات ناجي العلي..



حين رآه مقبلًا.. والقفص في يده فارغًا انفرجَتْ أساريره (بائع العصافير)
هبَّ من خلف الطاولة الكبيرة التي لم تكن في الحقيقة غير قفص بسقف خشبيّ يؤهِّله أن يكون طاولة؛ وعلى جانبيه بضعة أدراج أُعدَّتْ خصيصًا لعرض السَّلاحف. أما الطاولة الصغيرة التي كان يضع فوقها الهاتف فكانت مخصّصة لعدد من الأفراخ الدّجاج ناصعة البياض. هذه الأفراخ التي تؤدّي دوْرًا لا يؤدّيه أيُّ عصفور حين يأتي رجل وقور، ويطلب منه في أحيان كثيرة، عصفورًا يشبه دجاجة فيناوله إياها، دون أن ينسى وضع شبرة حمراء معقودة كفراشة حول عنقها الطويل!



- بما أنكَ أصبحتَ من زبائني، ستحظى بمعاملة خاصة جدًا. قال له بائع العصافير ذلك، وحتى قبل أن يفتح فمه.

- فقط، أريد عصفورًا واحدًا هذه المرّة.. وقفصًا أصغر.

- وهل أنت متأكّد من أن عصفورًا واحدًا يكفي. ماذا لو عاد فجأة وحطَّ على الشّرفة ولم يجد شيئًا يلتهمه؟ ما الذي ستقوله له؟!

- أقول لَمن؟

- أنتَ تعرف وأنا أعرف. ما دمتَ بدأتَ، فإن عليك أن تواصل حتى النهاية!

- أواصل ماذا؟

- شراء العصافير له.

- إذن أنت تعرف!

- ومن لا يعرف ما حدث في الشّرفة!!

- وكيف عرفوا بالأمر؟!

- إنك تُخيِّبَ أملي بك. عرفوا ببساطة لأن الأمر كلّه حدَثَ في الشّرفة!

- آه.

- أهذا كلّ ما يمكن أن تقوله: (آه)، حين أقول لك أمرًا خطيرًا كهذا؟!

- وماذا سأقول؟

- عليك أن تطلب مني تزويدك بعشرين أو ثلاثين عصفورًا على الأقل!

- لا. أريد عصفورًا واحدًا، لا غير، هذه المرّة.

- ولماذا؟

- لأنني أحسّ تمامًا بأنني رجل حرٌّ، وبأنني عملتُ ما عليَّ!

- رجل حرّ إذن!!

- نعم. رجل حرّ.

- وتريد عصفورًا واحدًا!!

- نعم. لأنني رجل حرّ. ثم إن عصفورًا واحدًا يكفي لتمثيل أبناء جنسه جميعهم في بيتي.

- تريد عصفورا إذن يُمثِّلُ أبناءَ جنسه كلّهم في بيتك؟

- نعم.

- وما الذي تريده؟ حسّون؟ ببغاء؟ كناري؟ أم دُوْرِي؟

- أي عصفور سيفي بالغرض!

- ولكنني أحذّرك من طلبكَ هذا. فحين يُمثِّل عصفور أبناءَ جنسه فإن ذلا يعني أنه أكثر أهميّة من أيّ عصفور عاديّ.

- خلاص. أعطني هذا.

- هذا ليس للبيع!

- وهذا؟

- هذا أيضًا ليس للبيع!

- وهذا؟

- وهذا أيضًا ليس للبيع. ولكنني يمكن أن أبيعك القفص الذي هو فيه!

- وماذا أفعل بقفص لا عصفور فيه.

- تذهب بنفسك وتصطاد عصفورًا وتضعه فيه. ألم تقل بأنكَ بحاجة لعصفور يمثِّل العصافير كلها؟!

- نعم.

- مثل هذا العصفور لا تستطيع شراءه، بل عليك أن تصطاده بنفسك!

- ولكنني لا أستطيع اصطياد بعوضة إن لم يكن في البيت ذلك المُبيد، ثلاثيّ الإبادة، المعدُّ لأبناء جنسها!

- ولذلك عليك أن تتسلّح بفخٍّ أو ربما بشبكة.

- لن أفلح في هذا. سأكسر قلب الأولاد مرّة أخرى؛ هم الذين ماتوا وهم يحلمون بوجود كلب ينبح في شرفتهم، يستقبلهم حين يعودون من المدرسة بفرح يفوق ذاك الذي لم يكونوا قادرين على سماعه في غناء العصافير.

وبدأ يبكي.

- لا تبكِ. قال له بائع العصافير. لا أنا ممن يحتملون البكاء ولا العصافير أيضًا، العصافير التي قد تبدأ بتقليدكَ الآن!

مسح دموعه: وما الحل؟!

- بما أنك من زبائني سأمدُّ لكَ يد المساعدة.

- أشكرك. أشكرك كثيرًا.

- سأتركك تصطاد العصفور بنفسك داخل القفص.

- بفخ؟ أم بشبكة؟

- لا بهذا ولا بتلك. بيدك!!

- وهل يُعتبر هذا النّوع من الصّيد صيدًا؟!

- أفضلُ الصّيد وأكثره إعجازاً أن يستطيع المرء اصطياد عصفور بيديا العاريتين، إن ذلك يشبه إلى حدٍّ بعيد أن تتمكن من قتل أسد بالعِراك معه!

* * *

هنا سنتوقّف قليلًا

لنعودَ إلى البدايات التي تركناها وراءنا هناك.. تنتظر!!

الزائر الأول

ذات يوم، بعد ثلاثة أشهر من تعيينه، طُرِقَ الباب، ولسبب ما، تمنّى أن يكون الرّجل العجوز هو من أتى.

لكنه لم يكن قد أدرك بعد، أن آخر شيء يفكِّر فيه الرّجل العجوز، هو أن يعود ثالثةً لهذا المكان.

فتحَ الباب..

لم يكن الرجل العجوز.

كانت صحفيّة في يدها كاميرا ضخمة، وذات عين بارزة جدًا، ذكَّرته بعيون (توم آند جيري) عندما تقفز من محاجرها إلى الأمام لترى أكثر أو..

لم يسبق له من قبل أن أبصر مصوِّرات، أو كاميرات كهذه؛ لا بدَّ أنها كاميرات مُعَدَّة بإتقان لالتقاط، أو اصطياد المشاهد؛ كان يفكر في ذلك دهشًا، وقد اكتشف فجأة أن التّصوير ليس مهنة رجاليّة بحتة.

ها قد اكتشف الآن شيئًا جديدًا.

بأنوثة وهدوء فائضين، طلبتْ منه السّماح لها بالتقاط بعض الصّور: نحن نعرف أنك المسؤول عن هذا المركز، وقبْلَكَ كان الرجل العجوز. بالمناسبة ما هي أخباره؟!

- هل تعرفينه؟

- لا. ولكنهم حدّثوني عنه طويلًا قبل أن أحضر، وإذا بي، يا للمفاجأة، ليس أمام أيّ شاب، بل أمام شابٍّ وسيم!!

- شكرًا.

لسبب ما، لعِبَ الفأر في عبّه، وقال في نفسه: لم تُغدقْ عليَّ كلَّ هذا الغَزَل

إلا لتصعدَ إلى السّطح!

بعد دقائق بات على يقين، لفرط حيويتها وتلك الجرأة التي سكنتْ عينيها على يقين من أنها ما أُرسِلَتْ إلى هنا إلّا كامتحان أوَّل له. وفكَّر: كان عليَّ أن أستعين أكثر بخبرة الرجل العجوز، وأن أسمع منه بعض تفاصيل ما حدث معه طوال الفترة التي أمضاها في المركز.

سألها: إذن أنتِ هنا للمرّة الأولى؟

- أجل. وهزّتْ رأسها وهي تتصفّح السّاحة وترفع عينيها نحو السّطح فانطلقتْ خصلةٌ من شعرها للأعلى، حلَّقَتْ وحلقتْ ثم هبطتْ بهدوء على كتفها الأيمن مُخفيَةً نصفَ وجهها.

(صمتٌ)

- ممنوع!

- نعم؟!!

- الصعود إلى السطح ممنوع. قال لها.

- لا يُعْقَل أن يكون الأمر ممنوعًا حتى الآن. لقد قالوا لي إن بإمكاني الصعود إلى السطح، ولهذا السبب حضرتُ بهذه التَّنورة الطويلة!!

- لم تزل التعليمات كما هي: (ممنوع التصوير من فوق السّطح).

- طيب! وهل سمحوا بتصوير المشاهِد الواقعة في الغرب؟!

- ممنوع التصوير في هذا الاتجاه.

- ها أنتَ تعيدُنا من جديد لعصر الطّاولة الذي حدَّثوني عنه. قالت له وهي تنظر نحو الطاولة في داخل الغرفة شبه المعتمة.

- إنها التعليمات!

- خلاص. أمري إلى الله.

طوال حديثه معها كان يفكر في شيء واحد، ألّا يتركها خلْفه حين يذهب لإحضار الطّاولة. ولذلك، وجدتْ نفسَها مضطرَّة للسَّير معه نحو الغرفة شبه المعتمة، وقد دعاها لمساعدته في حَمْل الطاولة.

في الدّاخل، لاحتْ منها التفاتة صوب طاولة أعلى، فقالت بسرعة: هذه أفضل.

فردَّ بحزم: عندما نقول الطاولة هنا، فإننا نقصد هذه الطاولة لا غيرها.

- ولكنني قصيرة كما ترى، وفَرْقُ ارتفاع تلك الطاولة سيُعوِّض هذا القِصَر! قالت له بدلال.

- كان عليهم أن يرسلوا مُصوِّرة أطولَ منكِ، أو مصوِّرًا!

عمَّ صمتٌ طويل، أدرك خلاله أن وظيفته الجديدة حوَّلته إلى رجل بلا لياقة في أول لقاء له مع الصحفيين.

لكنه لم يفكر بالاعتذار، وبخاصة الآن، لأن الأمر سيبدو في غير صالحه.

حملا الطاولة معًا والكاميرا الغريبة فوقها، حتى وصلا منتصف السّاحة.

تراجع أربع خطوات للوراء، تأمَّل الطاولة، تقدَّم وأزاحها قليلا نحو الشَّمال؛ ثم، ولكي يطمئنَّ قلْبُه أخرج البوصلة من جيبه، وضعها على سطح الطاولة، حدّد الجهات، ثم أخرج من جيبه قلمَ تخطيط أحمرَ ووضع دائرة على حافة الطاولة الغربيّة.

بصعوبة استطاعت الصعود إلى السّطح الخشبي. راقبها بدقّة. هبَّ هواءٌ ملتهبٌ أثار الغبار وأطار تنّورتها، بحيث كشف عن كل ما تحتها؛ ولأنها لم

تتحرك محاولةً السَّيطرة على هذه الفوضى فإنه، بدوره، لم يُغمض عينيه!

* * *

ليلًا..

بعد إطفاء الضوء، امتدَّت يده إلى ما تحت ثوب نوم زوجته، وخُيِّل إليه أن أصابعه لم تلمس سوى عاصفة مكتومة من الغبار الخشن.

استعادها.

آه أمّي!!

كان يومها في طريقه للعمل بعيدًا، حين وصلتْ صاحبته، فجأة، وأربكت المشهدَ في قاعة المطار الصغيرة.

جاءت باكية، بعينين منتفختين، كما لو أنها كانت تبكي منذ ثلاث ليال على الأقل؛ لكنّ خضرتهما ظلّتْ واضحة رغم الاحمرار الذي شابها! أمّه رأت خُضرةَ عيني صاحبته، بياضها، قامتها الطويلة وامتلاءها، لكنها لم تغفر لابنها أبدًا أنه نسيَ وجودها، حين راحَ ينظر طوال الوقت إلى تلك الفتاة التي دخلتْ حياته فجأة؛ في حين أنها أمّه، أمّه التي حملته تسعة أشهر في بطنها، أمّه التي أرضعته عامين ونصف العام بشهادة كلّ أقاربه.

راح ينظر لصاحبته، ناسيًا كلَّ مَن حوله.

(كانت المرّة الأولى التي أرى فيها أحدًا يبكي من أجلي، دون أن يكون أخي أو أختي أو أمّي أو خالتي.)

بعد ذلك لم ير صاحبته أبدًا..

حين عاد من سفره الطويل قالت له أمّه، وكانت عَمَليَّةً إلى حدٍّ أدهشه: البيضا إم عينين خُضُر ما رايحة ترجع. تلك البنت أخذتْها بلادٌ لا يعود منها أحد. إنها مثل (بلاد الوداود التي تودي ولا تعاود). واعترفتْ له أن فتاة شقراء بعينين خضراوين (لقْطَة)! لكن الأمر قسمة ونصيب. وأفهمته: (ما دام ينتظر عودَتها، فإن عليه ألّا يُضيِّع الوقتَ كلَّه في الانتظار!)

سألها: وماذا تعنين بألّا أضيّع الوقتَ كلّه في الانتظار؟!

قالت له: أعني أن تتزوّج بينما أنتَ تنتظرها؛ وهكذا يكون انتظارك أكثر جدوى! ولكنني لا أريد أن تفهم من ذلك أنني أشجعك على فقدان الأمل،

فلعلَّها تُطلَّق أو تترمَّل، والله كبير كما تعلَم!!

وراقتْهُ الفكرة. فالتفتَ إلى أمه وقال: موافق.

فتأمّلته بفخر لم يره من قبل في عينيها وقالت: نمر من ظَهْر نمر!

* * *

حين انفرد بزوجة المستقبل أول مرة، قرر أن يستفيد من خبراته كلّها، وفي أول فرصة لاحتْ لهما استحضر (الجنَّ) الذي ذهبّ هباء في تلك الواقعة المشهورة مع صاحبته..

(سنأتي على ذكرها لاحقًا).

تجاوز الخطوة الوحيدة التي تفصلهما وقبَّلها. وأحسَّ بأن الجنَّ فَعَلَ فعْلَه هذه المرّة، أكثر بكثير مما يجب، وأن قوته (الجنِّ) ظلّتْ ساكنةً، وربما تتفاعل في داخله حتى انفجرت بعد سنين، فجأة، في ذلك اللقاء المدوّي مع زوجة المستقبل.

فيلم طويل

في طريق عودته إلى البيت أعلنتْ دقاتُ (بيغ بن) الثانية ظهرًا بتوقيت غرينتش، الرّابعة بالتّوقيت المحلّي.

لم يعد يسمع الإذاعات سوى في سيارات السَّرفيس، وأحيانًا في باصات النّقل العام!

بعد لحظات من بداية النشْرة، أعلن المذيع بصوته العريض الأجشّ أن مراسل الإذاعة في نيويورك معه على الخط.

كان الخبر عاجلًا، إذ أفاد المراسل أن طائرة صغيرة ارتطمت ببرج التجارة العالمي في نيويورك. وحين سأله المذيع عن الخسائر أجاب المراسل: لم يتَّضح شيء بعد، وسأوافيكم بالتفاصيل بعد قليل!

فكّر رشيد النِّمر في الأمر، طائرة صغيرة ترتطم ببرج التجارة العالمي في نيويورك، وبسبب ذلك يقطَعون نشرة الأخبار!! ماذا لو كانت ارتطمت ببناية مركز التجارة العالمي نفسه؟!!

وتخيّل طائرة صغيرة تمرُّ وترتطم بهوائي تلفزيون أو حبل غسيل فوق بناية مرتفعة وتساءل ما المصيبة في ذلك؟!

باختصار، تعامل مع البرج باعتباره ذلك الجزء المُلْحَق بالبناية، والذي قد يكون مُعَدًّا للاتصالات وما إلى ذلك.

مرَّ زمن طويل، أو هكذا خيِّل إليه؛ تتابعت الأخبارُ متدفِّقة مع صوت المذيع الذي أعلن ثانية أن مراسل الإذاعة في نيويورك معه على الخط مباشرة.

- هل هنالك أخبار جديدة عن الطائرة؟

- لقد عَلِمْنا للتّو، أن طائرة صغيرة أخرى ارتطمتْ ببرج التجارة العالمي!

فكّرَ رشيد النِّمر: أيّ برج هذا الذي يصمد بعد ارتطام طائرة صغيرة به لتأتي طائرةٌ أخرى وتُكَرِّر الأمر؟!

لكن صوت المذيع المنفعل أعاده ثانية لسماع النشرة.

- وهل تعتقد أن الأمر مُدَبَّرٌ، كأن يكون عملية إرهابية مثلا؟!

- لا أظن أنه عمل من هذا القَبيل. ردّ المراسل واثقًا.

- لكن اصطدام طائرتين ببرج التّجارة العالمي لا يمكن أن يكون مصادفة!

- حتى الآن ليست هناك دلائل تشير إلى غير ذلك. لكنني سأوافيكم بما يستجدّ حول هذا الأمر!

* * *

تناول رشيد النِّمر طعام الغداء على عَجَل، دون أن ينسى تفقُّد العصفور..

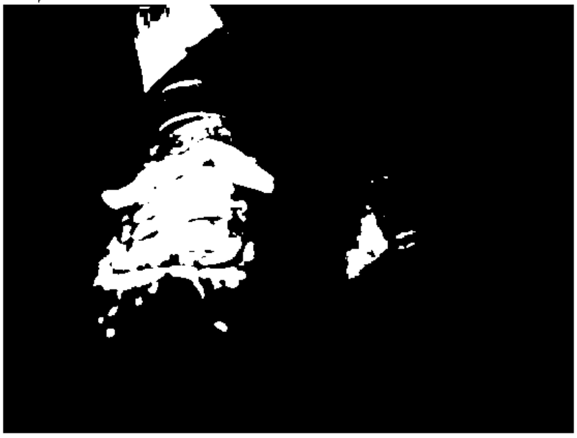
نام؛ بجانبه امرأته التي تحرص دائمًا في الظهيرة على إخفاء رأسها تحت الغطاء، أكان الوقت شتاءً أم كان صيفًا.

كان النّوم نعمة رشيد النِّمر، فما أن يضع رأسه على المخدّة حتى يصبح في عالم آخر تمامًا.

مرّت في حلمه عصافير كثيرة، وكان باستطاعته أن ينتقي منها ما يشاء؛ فقط، كان عليه أن يُشير إلى أحدها حتى يراه إلى جانبه واقفًا بأدب جمٍّ، ولم يغفر لنفسه أنه عاش حياته جاهلًا لا يعرف فضائل النّوم.

شجّعه ذلك أكثر، إذ راح يشير إلى العصافير كيفما اتّفَق، وكل عصفور يرى إصبع رشيد النِّمر متّجهًا إليه، كان ينعطف برشاقة استثنائية كما لو أنه طائرة حربية فائقة التطوُّر ويهبط كسهم ضامًّا جناحيه، وقبل أن يصل إلى جواره بمسافة متر واحد، على الأكثر، يفْرد جناحيه ويهبط بنعومة تلك الرّيشة

التي هبطتْ على حذاء (فورست غامب) في ذلك الفيلم الشهير:



كانت العصافير تقف إلى جانبه بانتظام عجيب، مثل طابور فائق الانضباط تنتظر إشارة منه..

أو هكذا خُيِّل إليه..

تأمّل السّماء الزرقاء، فوجدها أكثر زرقة بعد انقشاع غيمة العصافير. التفتَ إلى الطابور المنتصب إلى جانبه الأيمن، ثم لذلك الواقف إلى جانبه الأيسر، ضم قبضته اليمنى، ضم قبضته اليسرى، رفعهما بسرعة، وهوى بهما نحو الطابورين وقد أغمضَ عينيه، غير راغب بمشاهدة انسحاق ذلك اللحد الصغير.

وحين فتح عينيه على صرخة زوجته التي تلقّتْ ضربة مجنونة أعادتها للحياة! كانت العصافير تحوم في فضاء الغرفة ناثرة الفوضى في المكان، وكان ابنه الصغير يُشرع الباب، ويدعوه بسرعة لمشاهدة ذلك الفيلم الغريب الذي يبثّه التلفزيون

على الهواء مباشرة.

في الوقت الذي راحت فيه العصافير تنسل خارجةً من الغرفة كسحابة.

- أهذا وقته؟ قال رشيد النِّمر لابنه.

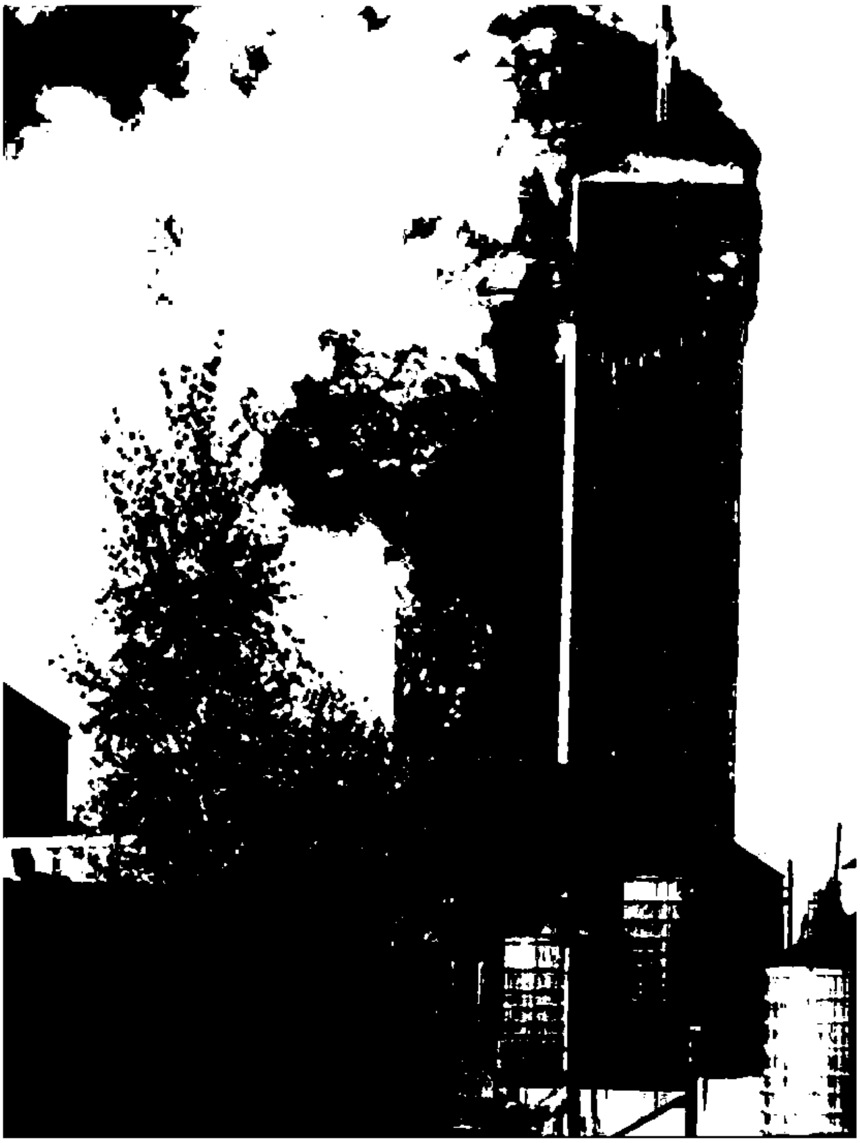
بحنان لم يكن يعتقد أنه يسكن جنبيه، راح يحاول وقف سيل الدَّم المتدفّق من أنف زوجته، مستخدمًا المناديل البيضاء المتوافرة بكثرة في غرفة النوم (لعلَّ وعسى).

حين رأت زوجته فائض حنانه، قالت له: أرجو أن أراك، هكذا، مرّة ثانية.

التقط خيط المعنى الرّابض في كلامها، فقفز مبتعدًا متتبِّعًا ذلك الممرّ الذي سلكته العصافير.

* * *

ثلاث ساعات أمضاها رشيد النِّمر أمام شاشة التلفزيون وهو يردد مرّة بعد أخرى: مستحيل!!!



ويغمض عينيه نصف إغماضة كلّما أُعيد بثّ مشهدي ارتطام الطائرتين ببرجي مركز التجارة العالمي.

كان ترديده المتواصل للكلمة كافيًا لإخراج ابنه الكبير من عتمة غرفته، ليقف إلى جانبه مشدوها، غير قادر على الجلوس أو التحرُّك وقد مسحتْ المشاهد المُتعاقبة أمام عينيه كلَّ ما شاهده من تطبيقات استخدامات الغيارات الداخلية! وحين استعادوا أنفسَهم وأنفاسهم، آخر الليل، من تلك المفاجأة التي عصفتْ بهم، التفتَ الولد الكبير إلى أبيه وقال: هل بإمكاني أن أطلب شيئًا؟!

- ما تشاء. أجابه الأب المشْدوه.

- أن تشتري لي غدًا نسخة من هذا الفيلم!!

- حاضر!!

قهقهة المفارقة

كثيرون سيسألون الآن: وما أصل المشكلة؟

أو، حتى، سيصرخون وما المشكلة أصلًا؟

وقبل أن يفعلوا ذلك، سأشير إلى رأسها المنتفخ وقهقهة المفارقة التي أسْكَنَها رشيد النِّمر الشرفةَ، حينما داهمه ذلك الشّوق الرّمزي الفجّ للأجنحة مرّة أخرى، بعد وقت غير قصير من استلامه عمله الجديد؛ أعني حين انتهز تلك الفرصة التي لا تتكرّر في حياة المرء أكثر من مرتين:

(عودة الأولاد - بعد موتهم- إلى إلحاحهم القديم لاقتناء كلب!)

وقد شجّعه على ذلك أن الصّقر لم يعد للظهور ثانية.

لكننا لم نقل إن الزمن كان قد تغير..

ولم تعد مسألة اقتناء العصافير أمرًا عشوائيًا.

ذهب واصطاد ذلك العصفور بنفسه داخل القفص. العصفور الذي سيمثّل أبناء جنسه. وقد استلم وثيقة من البائع، مثل تلك الوثائق التي يحصل عليها المرء حينما يشترى ثلاجة أو سخّانًا شمسيًّا أو ميكروويف.

كانت الوثيقة واضحة ولا لَبْس فيها:

يضمن بائع العصفور إصلاح أيّ خلل قد يحدث فيه لمدّة ستة أشهر، على أن يكون الخلل عائدًا لخطأ مصنعيّ! ويُستثنى من ذلك أيّ ضرر قد يلحق بالطائر بسبب العبث به أو تعريضه لخطر مباشر أو ضوء قويّ، أو وضعه تحت السماء الزرقاء أكثر من نصف ساعة في اليوم!

* * *

مع إطلالة شمس صباح اليوم التالي بدأ الأمر يختلف، إذ لاحظ فجأة أن

ثمة ريشًا طويلًا راح ينمو في طرفي جناحي العصفور..

وفي اليوم الثاني، لاحظ أن الأمر أخطر بكثير: إذ لمح في عيني العصفور التماعةً لم يرها، حتى خبراء الطيور، في عينيّ هذه المخلوقات الصغيرة منذ زمن طويل!

وفي اليوم الثالث، لاحظ أن حجم العصفور تضاعف مرّتين على الأقلّ!

أما الشيء الذي لم يستطع التأكد منه، فهو إن كان ذلك يعود لخطأ طبيعي، أي مصنعي! أم لخطأ ما، ارتكَبَه؛ كأن يكون قد أعطى العصفور جرعة مضاعفة من الضّوء أو من السماء الزرقاء دون أن ينتبه

(هو يعرف أكثر من سواه أنه كان دائمًا عُرْضة لنوبات، (هكذا يدعوها)، من الاستغراق في التفكير بأشياء ضبابية لا وجود لها كي لا يفكّر في شيء!)

* * *

حين حمَل العصفور أخيرًا..

ومضى نحو بائع الطيور..

كان الأمر أشبه بفضيحة؛ إذ لم يسبق لأحد أن رأى عصفورًا من هذا النّوع، بهذا الحجم، من قبل.

بائع الطيور تأمَّلَ العصفور وقال له: إنها حالة فريدة!! هل يمكن أن تتركا عندي يومًا أو يومين لأتأكّد مما يحدث فيه؟!

بل زاد وقال: يلزمه اختصاصي، ولحسن الحظ، هناك خبير يصل البلاد هذا المساء!

أما في حقيقة الأمر، فلم يكن هناك خبير ولا ما يحزنون، كما قالت العرب ولم تزل تقول!

حين عاد رشيد النِّمر بعد يومين بعينين محمرَّتين وأنف شاحب ويدين مرتجفتين كمصير مجهول، قال له بائع الطيور: اطمئن.. أظنّه كان أصغر مما يجب حين ابتعتَه، وهذا ما يُفسِّر الأمر. وبإمكاني أن أؤكّد لك انه عصفور طبيعي.. طبيعي تمامًا مثل تلك التي..

وكان يريد أن يقول: مثل تلك التي تراها في كلِّ مكان. إلى أن تذكَّر أن العصافير لم تعد من زمن طويل مُلْكًا للمواطن يراها في أي وقت يشاء!

ما حدث،

كان يشبه إلى حدٍّ بعيد قوانين الطوارئ، إذ تقرر تقنين مشاهدة الناس للطيور لأسباب يعرفها الناس، لحسن الحظّ، تمامًا مثلما يعرفها من وضع هذه القوانين. وقد كانوا قلَّة، أولئك الذين تتاح لهم فرصة مشاهدة العصافير خطفًا، أو سماع صوتها في السّاعات الأولى من الصباح، مثلما كان يحدث مع رشيد النِّمر. إذ ما إن تشرق الشمس حتى تختفي العصافير، أو ما تبقّى منها طليقًا، بعيدًا عن أعين الفوهات وفخاخ الأولاد ونُقّيفاتهم. كما لو أن العصافير وضعتْ لنفسها برنامجًا دقيقًا للحذَر، وتعاهدتْ على الالتزام ببنوده كافّة.

لكن العصفور عصفور في النهاية، ولا بدّ أن يتسلّل الخدَرُ إلى حَذَرِه، كما قال أحد الكتّاب!! ويقع فريسة الغفلة أو الشّهوة المُستَعِرة في دمه لدودة أو جُعْل؛ وهذه واحدة من المفارقات الغريبة في عالم الطيور التي طالما شغلتْ رشيد النِّمر؛ ونعني كيف يمكن لطائر يمتلكُ جناحين ويستطيع التّحليق بهما أن تهفو نفسُه لدودة حقيرة تزحف، ويخسر، في النهاية، أجنحتَه بسببها؟!!!!

بائع الطيور رأى عيني رشيد النِّمر، أنفه، ولكنه بات على يقين من أن يديه باتتا أقلَّ ارتجافًا.

ولكي يطمئنه أكثر قال له: سأعطيك هديةً.. قفصًا أكبر.

وحين ناوله القفص الجميل بالقبّة المعدنيّة التي تنتهي بزركشة ملوّنة، صاعدة كقمّة برج مقدّس؛ قال له ضاحكا: إذا كبر ثانيةً إلى ذلك الحدّ الذي يُمكن أن يضيق عليه قفص كهذا، فأنا مستعدّ لأن أجلس مكانه في القفص، وأدعه يبيع الناسَ، كما أبيعُ الطيورَ في هذا المكان!

لكن رشيد النِّمر، الذي لم يبتسم منذ..

لن نحدّد تاريخًا لذلك

فبإمكان كلِّ واحد منكم أن يتذكّر التاريخ الذي يريد

إذا كان قُدِّرَ له الابتسام ذات يوم

وأعني: يبتسم فعلًا، لا أن ينشُرَ طرفي فمه كحبلين شاحبين على مسمارين صدئين طالعين واثقين رافعَي الرأس (الرأسين)! شامخين مزهوّين بثباتهما من جدار إسمنتي!!

لم يبتسم.

ولأول مرّة بات يحلم بوصول ذلك الذي وصل أخيرًا.

الفيلم ثانيةً

خلف باب الشقّة مباشرة كان يجلس..

أشرع رشيد النِّمر الباب، ففوجئ بابنه الكبير أمامه تمامًا. أوشك أن يتعثّر به.

- هل أحضرتَ لي الفيلم؟!

- أيّ فيلم؟!

- فيلم الطائرات التي اصطدمتْ بالبنايات ودمَّرتها!

- لا لم أحضره.

- ولكنني أريده.

- قلتُ لك سيعيدون بثّه من جديد؛ كن مطمئنًا!

- إنني أجلس أمام التلفزيون من يومها، ولا يفعلون أكثر من بثٍّ دعاية الفيلم! مقْطَع قصير ثم مقطع قصير؛ حتى الفضائيات المتخصِّصة بالغيارات الدّاخلية تبثّ دعايته باستمرار، ولا أحد يقول بوضوح متى سيُعاد عرضه. أريد الفيلم يعني أريد الفيلم!

- ولكنه ليس فيلمًا بالمعنى الدّقيق للأفلام! قال رشيد النِّمر لابنه وقد أحسَّ فجأة أن الولد لا يمزح.

- كيف لا يكون فيلمًا؟! ألم يُعرض في التلفزيون؟!

- نعم عُرِض!

- وهل يعرضون في التلفزيون الأفلام أم يعرضون التمثيليات الإذاعية؟!

- الأفلام! كل شيء في التلفزيون أفلام!

- لقد اعترفتَ إذن بأنه فيلم؟!

* * *

بعد ليال رنَّ جرس الهاتف في الثالثة فجرًا.

انتفض واقفًا.

- لا أراك هكذا إلا حين يرنُّ الهاتف! قالت امرأته.

- ماذا؟

ولم تُجب. كانت نائمة.

تناول سماعة الهاتف بيد مرتجفة.

- بيت رشيد النِّمر؟

- نعم. بيت رشيد النِّمر.

- هل باستطاعتك القدوم إلى الميناء لاستلام ابنك؟!

- أيّ ابن؟ ومِن أين؟!!

- ابنك الأكبر، إنه يصرُّ على الصّعود إلى ظهر حاملة الطائرات الأمريكية (كيتي هوك)!

- ولماذا يصرّ على أمرٍ كهذا؟

- لقد جاء ليُسلِّم نفسه للأمريكان مباشرة! ولكن، لحسن حظِّكم رفض الأمريكان قراره تسليمَ نفسه!

- ولماذا؟

- لماذا رفضوا؟!

- لا. لماذا يكون مضطرًا لتسليم نفسه؟! في النهاية لم يكن ابني في حالة حرب معهم، على حدِّ عِلْمي على الأقل.

- ليس لديَّ وقت لمجادلتك، إذا كان لديك سيارة فبإمكانك أن تأتي لتأخذه،

وإن لم يكن فستكون الشرطة مضطرّة أن تخدِمَ الشعب نظرًا لبُعْد المسافة!

- أشكرك. سترسلونه لنا؟!

- نعم. باستطاعتك أن تستلمه من مديرية شرطة العاصمة.

- أشكرك. متى؟

- حين تتوافر السيارة الذاهبة إلى هناك، أقصد باتجاهكم.

- شكرًا.

* * *

سبعة أيام طويلة أمضاها رشيد النِّمر في الانتظار أمام مديرية الشرطة.

ولم يكن هناك سوى تلك الجملة الوحيدة التي تتكرّر: السيارة في الطريق!!

ولذلك، لم يجد حلًا سوى استئناف حياته من جديد، في انتظار وصول السيارة!

مقابلة مع الرجل العجوز

لم يكن قد مضى الكثير من الزّمن عندما قابلَ الرّجلَ العجوز وجهًا لوجه في أحد الشوارع. الشمس ساطعة على نحو غير عاديّ، وحرارتها تجعل الإسفلت تحت الأقدم يغلي، السيارات تُطْلِقُ أبواقها بالنّزق المعهود حين تتعطّل حركة المرور، وبعض الأولاد التصقوا بالشارع غير قادرين على تحريك أرجلهم!

- مرحبًا!

- أهلا. مين الأخ؟! ردّ الرّجل العجوز وهو يحاول اتِّقاءَ سيل حمم اللهب المُنهمِر بمظلّته المورّدة..

- أنا.. أنا من جاء بعدك؟!

- ملايين جاءت بعدي، فأيّ واحد منهم أنت؟!

وبدا الرّجل العجوز أكثر شبابًا، من تلك الأيام، وأكثر انشراحًا.

- أقصد أنا ذلك الذي استلم الوظيفة بعدك.

- ولم تزل تعمل هناك؟!

- نعم، وقد كنت أتمنّى أن تزورني ذات يوم. ألم تحنّ لعملك القديم؟!

- أنا؟! أستغفر الله. ومَن يحنُّ لذلك العمل؟!! ولكن سامحني، لم أعرفك، ربما لأنني لم أقابلك سوى مرتين. مرتين على ما أظنّ، هل ذلك صحيح؟

- نعم مرّتين فقط.

- وما الذي تريده مني إذن، وأنتَ تقول لي مرحبًا من كلِّ قلبك؟!

- كنت أريد أن أسألك، لكي أكون أكثر اطمئنانًا عن سير العمل، عما إذا كان عليَّ أن أتنبه لأشياء بعينها.

- تقصد في المركز الإعلامي؟

- أجل.

- لقد قلتُ لكَ كلَّ شيء. قلتُ لك المُهم وعدتُ وقلتُ لك الأَهمّ؛ أليس كذلك؟

- نعم، وأنت لم تُقَصِّر في هذا. ولكنني كنتُ أريد أن أسألَك أكثر عن خبراتك في التّعامل مع الصحفيين، نظرتك العميقة لهم، وكيف أُفرِّقُ بين هذا وذاك.

- ولماذا؟

- لأنني بحاجة لذلك. فقد باتَ حضورهم يتزايد في الفترة الأخيرة. وقد حذرتَني منهم، من الاتجاهات، الصّعود إلى السطح، وأوصيتني باعتماد الطّاولة مقياسًا؛ أليس كذلك؟!

- أجل. ولكنني لا أستطيع أن أخدمَكَ في هذا، لأنني في الحقيقة، وطوال فترة خدمتي لم أرَ أيًّا منهم!!

- لم ترَ أيًّا منهم؟!!

- لم أرَ أيًّا منهم. فقد كنا نعيش مرحلةَ ما قبل الدّيمقراطية!

- وماذا عن جهة الغرب هذه إذن، وما هو سرّها؟!

أغلق الرجلُ العجوز فمَ رشيد النِّمر براحته بحنق، ثم أشرعه بحنق أكبر دون أن يتوقّف عن النّظر حوله برعب شديد!

- أنت لم تفهم كلمة واحدة مما قلتُ لك!!

واندفع مبتعدًا.

تبعه: ما الذي حدث؟! هل أخطأت في شيء؟!

وظلَّ الرجل العجوز مندفعًا وهو يتمتم: كنت أعتقد أنك صديق!!

راح رشيد يراقب الرجلَ العجوز يختفي بين الناس.. تحت سيل الحِمَ

المندفعة من جوف السماء، ووسط صرخات الأطفال الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على التحرُّك رغم محاولات المساعدة التي يبذلها آباؤهم؛ مظلته المورّدة تظهر وتختفي إلى أن اختفتْ نهاياتُ الشارع نفسها.

(أغنية)

عتمةٌ مثل ظلٍّ قديم على وشك الانهيارِ
فلا فرقَ بين وضوح الصّوابِ
وقعْرِ الخطأْ
أنتَ تعرفنا: أيّ هذا الظّلامُ
فمَنْ قبل مَنْ
بين جدران هذا الظّلام انطفأْ؟!!

عصفور على الشرفة

حدّق في الشّرفة بعد ثلاثة أيام، كان بودِّه أن يصرخ، لكن صرخةً تخرج لمجرد أن يُطْلقها صاحبها، صرخة لا يسمعها أحد، كانت تؤرّقه على الدّوام.

كان العصفور أكبر بكثير مما تخيَّله

يشبه دجاجةً حمراء، طويلة وبارعة في تلفّتها نحو كلّ الجهات، ولم يكن بحاجة إلى أن يكون عبقريًا كي يعرف السَّبب:

لقد أخذه النوم كثيرًا، وباغتت الشمسُ الشُّرفة أكثرَ مما يجب..

وتذكَّر كيف أن هذا العصفور، كان يفردُ جناحيه كلّما أطلَّتْ الشمسُ بطريقة لم ير من قبل مثيلًا لها ويغفو:



وبفطنة الغريق الذي يرى قشّة فيتعلق بها، جرى نحو القفص

حمله بصعوبة، ووضعه في المكان الوحيد الذي لا يمكن أن تصل إليه الشمس: (الحمَّام)

ولكي يطمئن أن أحدًا من الموتى لن يُشعلَ الضّوء
كتَبَ بخطِّه الذي كان دومًا جميلًا عبارة تحذير لا تحتمل اللبْس:

ممنوع إشعال ضوء الحمام لأي سبب

تأمّل ما كتبَ، فأحسّ لوهلة أن الخطّ غير مقروء بصورة جيدة، فعاد وكتبه من جديد:

ممنوع إشعال ضوء الحمام لأي سبب

أرجع رأسه للوراء، نشر ذراعيه على امتدادهما، تأمَّل ما كتَبَ، همسَ معقول.

* * *

لم يَدُم ذلك طويلًا، فحتى الأموات يحتاجون للحمّام بين حين وآخر، هذا ما اكتشفه بعد نصف ساعة لا أكثر، حينما امتلأت مثانته، هو الذي نسيَ أن يفتتح النّهار بدخول الحمّام، كعادة كلّ الموتى الذين يتورَّطون بغباء لا حدّ لا بتربية العصافير في الأقفاص.

نزع لافتة التّحذير ودخل!

لم تكن العتمة حالكة إلى ذلك الحدّ الذي لن يستطيع معه توجيه ذَكَرِه للمنتصف، (لكن الحذَر واجب).

فَعَلَها جالسًا

إذ لم يكن يتصوّر في النهاية احتمال تلوّث ريش العصفور ببعض الرّذاذ.

حين انتهى خطرتْ له الفكرةُ الجهنميّة التي طالما تمنّى أن تخطر له: لماذا لا

يعيشُ العصفور في البيت ويعيش هو على الشّرفة؟

وبدأ بالبحث عن حلول ملائمة لبقية الأموات

لكن الأمر لم يصل به إلى حدٍّ التفكير بقتلهم مرّةً أخرى

وبصمت من يحوك مؤامرة في ظلام هشٍّ

قررَ أن يغافلهم وأن يمضي بخطته: (العصفور في الحمّام وهو على الشرفة)

واثقًا من أن أحدًا منهم لن يلاحظ ما يدور

وإنْ لاحظَ، سيأتي إليه دهشًا ويسأله:

ما ذلك الشيء الذي في الحمّام؟

* * *

من قديم..

حذَّرته أمّه من الفضول، وأكّدتْ له أنه قَتَل القِطَّة.

وقالت له: إياك ثم إياك أن يحدُثَ لك ذلك، إذ لم يسبق أن وقع أيّ فرد من أفراد عائلة (النِّمر) في فخّ كهذا.

ولسنوات طويلة ظلّ يدور في الشوارع متتبعًا خطوات القِطط

إلّا أنه لم ير الفضولَ يقتل أيًّا منها!

هكذا قرر أن يُشعلَ الضوءَ بعد ستة أيام ليطمئن.

كانت المفاجأة بحجم حبّة جوز كبيرة تسقط على رأس رجُل أقرع من شجرة استوائية شاهقة!!

كان العصفور قد غدا بحجم القفص تمامًا

التصقتْ أعضاؤه وتداخلتْ



أشبه ببُقْجة ملابس قديمة أُعِدَّتْ للتّصدير كان
ولم يكن لدى رشيد النِّمر سوى خيارين:
أن يترك القفص يتناثر بفعل ازدياد حجم العصفور
أو يذهب بنفسه للبحث عن مقصّ حديد
في النهاية، اتخذ القرار الأول، دون أن ينسى التّلفُّتَ حوله للتأكّد من أن
أحدًا لم يسمع دبيبَ الفكرة الحمقاء التي احتلَّتْ رأسه
ولكي لا يَسْفحَ الوقتَ على مذبح العتمة دون ثمن
ولكي تكون المخاطرةُ بحجمها الطبيعيّ
قرر أن يُبقي عينيه على العصفور
فمَن هو ذلك الرُّجل السعيد الذي أتيح له أن يرى بأمّ عينيه عصفورًا يكسر قفصًا، وفي الظلام، دون مساعدة من أحد؟!

العتمةُ مثل حبَّة (فاليُوم)، إن لم تكن أقوى، هذا ما يعرفه
العتمة نصف النوم، أو لعلّها ثلاثة أرباعه

بعد أقل من ساعتين، نام، وحين نهض على ثقل غير عاديّ يمنعه من

التَّنَفُّس، وحدّق في العتمة، أدرك أن العصفور قد غادر القفص، وأنه يجلس فوق صدره؛ وأن مغامرته ذهبتْ أدراج الظّلام، حين لم ير بعينيه تمزُّقَ الأسلاك وخروج العصفور من بينها خروجَ الصّوص من البيضة.

كان عليه منذ البداية أن يكون أكثر قناعة.. كان عليه أن يكتفي بتربية دجاجة بيضاء (كبقية الأموات الذين يستسلمون أخيرًا أمام إلحاح أبنائهم)، بدل التّفكير بكائن ملعون كهذا.

بصعوبة أزاح العصفور عن صدره، أخذ نفَسَين عميقين مختلطَين برائحة يعرفها تمامًا، أشرعَ الباب، أشعلَ الضوء (مفتاح الإضاءة في الخارج)، نظر إلى العصفور، كان أقلّ حجمًا مما تصوّره..

لكنه كان كبيرًا:



تذكّر العهد الذي قطعه بائع الطيور: إذا كبر إلى ذلك الحدِّ الذي يمكن أن يضيق عليه قفص كهذا، فأنا مستعدّ أن أجلس مكانه في القفص وأدَعَه يبيع الناسَ كما أبيع الطيورَ في هذا المكان.

ولأنه يعرف أن بائع العصافير صادق، فقد فكّر بأن أفضل حلٍّ يقوم به هو ألّا يمضي بالعصفور إلى هناك، كي لا يعود إلى البيت بقفص يتقافز في داخله بائعُ عصافير!

علّق الحبل الذي أتى به من خزانة الملابس على مسمار في الحائط، وأعني: ربطة العُنق.

فبدا أشبه بتفصيل صغير فذٍّ مقتطع من لوحة عظيمة لسلفادور دالي. حبل

أنيق، كم يفخر به، أهدته إياه زوجته في ذكرى ملامسته لواحد من بنْصَريْها في مطعم (الدّبلومات)، بعد ثلاثة مواعيد ونصف الموعد.

كان الحنين للماضي قد فاض به، الحنين لموعده الشّهير مع صاحبته..

(سنأتي على ذِكْرِه لاحقًا)

الحنين الذي جعله يمضي بزوجة المستقبل إلى المكان الأثير نفسه، ليَقتُل ذلك الحنيَن، أو يقتله ذلك الحنينُ، كما قَتَل الفضول القطة.

ولأن العصفور لم ير السِّكين التي دسّها صاحبه تحت القميص، فقد مضى بزهو نحو الشّرفة، مثل طفل يمضي به والده نحو البريّة للمرّة الأولى..

وكم عذّبه هذا..

كان يريد منه أن يتفلّتَ، أن يرفَّ بأجنحته، أن يضربه بمخالبه التي لم تعد صغيرة، لكنه مضى بزهْو معه نحو الشّرفة!

في منتصف الممرّ توقّف، فتوقّف العصفور، نظر خلْفه، فنظر العصفور إلى حيث ينظر!

(ماذا لو أعدته للبائع)

طرد الفكرة، وقد تخيّل منظره يسير في الشارع وبجانبه عصفور بهذا الحجم!

أما الشيء الذي لم يكن يعرفه فهو أن مشكلته كانت مشكلة كلِّ من لديه عصفور بهذا المستوى!

وهكذا، كان عليه أن يتصرّف بصمت، كما تصرّفوا جميعًا!

إنه الحسّ العظيم الذي طالما انتشر ووحّد قلوبَ الجميع هنا، دون أ يتبادلوا كلمة واحدة حول ما يقضُّ مضاجعَ أرواحهم!

كأنهم جميعا أفراد عائلة واحدة.. عائلته، عائلة (النِّمر)!

ورغم أن الوقت كان ما بعد منتصف الليل بقليل، إلّا أن العصفور مضى للشرفة كما لو أن الشمس تنتظره فيها؛ ولم يكن حسّ العصفور بالشمس ناجمًا عن قلَّة فَهْمٍ أو تقدير، لأنَّ الشّرفة، وكما يعرف البشر أنفسهم، مهيأة دائمًا لاستقبال الشمس كلّما فكّرَتْ بزيارة أهل البيت!

إذا ما ذهبنا أبعد فسنقول: الشُّرفة كرسيٌّ الشّمس.

كان يتقدَّم عن العصفور نصف خطوة؛ وحين وصل باب الشرفة الزجاجي حرصَ أن يغدو نصفُ الخطوة خطوتين.

فتح الباب الزّجاجي، حشرَ جسْمَه، وحينما حاول العصفور أن يتبعه، أغلق الباب بسرعة فأصبح رأس العصفور في الشرفة وجسده في الممرّ!

(حركة بارعة)

بخبرة العصافير التي توارثتها على مدى الزمان، أدرك العصفور أنه وقع في الفخّ، وأنه سيموت. لكن يأْسه لم يمنعه من أن يحلم بشمس تشرق فجأة ساطعة على غير عادتها، فيكبر أكثر وأكثر فلا تغدو السِّكين، التي التمعتْ، أكثَرَ من شوكةٍ، مقارنة بحجم رقبته، ويكون مصير البيتِ مصيرَ القفص!

لكن الشمس لا تشرق هكذا. هو يعرف ذلك وصاحبه يعرف.

فكّر بمراقبة العصفور سويعات أخرى، قبل شروق الشمس، ليعرف كم يكبر العصفور في ساعة، لكنه تراجع عن فكرته؛ فماذا لو أخذه النّوم ثانية وداهمته الشمس في الشرفة ورآها العصفور.

- سيمزّق البيتَ عندها كما مزّق القفص.
برشاقة رجل ذبح رَفًّا من طيور مماثلة،
هوى بالسِّكين على رقبة العصفور،
تناثر دم غريب، لو لم يكن عاقلًا، كما ينبغي له أن يكون، لقال بأن الّدم لم يكن أحمر!

كانت الخطّة مُحكَمة تمامًا

ظلَّ يراقب خفقات الأجنحة خلف الزجاج حتى هدأتْ تمامًا
وعندها أبصَرَ ما لم يكن في الحسبان:
كان ريش الطائر قد تناثر كلّه؛ وبدا الطائر الذّبيح جاهزًا لكي يُحْمَل إلى طنجرة أو فُرْن، بعد عملية تنظيف للأحشاء، لا بدّ منها في مثل هذه الحالات.
تلفّتَ رشيد النِّمر حوله، وخُيِّل إليه أن هنالك أكثر من رجل يتحرّك في الشُّرفات المقابلة.
أشرع البابَ ودخل؛ وقبل أن يُشعل الضوء، أدرك أن البيت قد امتلأ بريش العصفور.

أشعل الضوء..

وكما لو أنّ الضوءَ ريحٌ هبّتْ من كل الجهات، التفتَ فرأى الشّرفات التي خلْفه قد أضيئَتْ.
فوجئَتْ ظلالُ الرِّجال بظلال الرِّجال، وفي لمح البصر أُسْدِلَت السّتائر! لكن ذلك لم يمنع تسللَ حُزَم الضوءِ منها.

لم يكن هناك من أمر يُمكن أن يُشفي غليله أكثر من أن يأكل العصفور، يطحن عظامه بأسنانه ويُمزِّق لحمَه بأظافره!

لكنه تراجع عن ذلك؛ فماذا لو كان مصابًا بمرض غريب؛ وهو مصاب بالتأكيد. فينتقل المرض إليه ويصيبه ما أصاب العصفور، بحيث يغدو البيت ضيّقًا عليه، ويغدو هو نفسه مثل بقجة ملابس قديمة مُعَدَّة للتّصدير.

أطفأ الضوء، أشرع البابَ بسرعة، وبصعوبة تمكّن من حَمْل العصفور وإلقائه إلى الشارع!

وعندها، سمع أكثر من ارتطام لحم عصفوريٍّ بالرّصيفين المتقابلين، وتأكّد له أن أذنيه في مكانهما حينما سمع أبواب الشّرفات تُقْفَلُ على عَجَل.

أشعل الضوء.

ولثلاثة أيام بلياليها ظلّ يجْمَع الرّيشَ في أغطية المخدّات وفي أغطية اللُّحف، وعندما انتهى من العثور على آخر ريشة.. نام!

بعد زمن استيقظ، فأيقن أنه لم ينم قبل هذا النوم بمثل هذه الراحة..

ولم يكن بحاجة للبحث عن سبب وقد كان ريش العصفور تحته وفوقه، يملأ بطون الأغطية والوسائد.

النصيحة

- هل ارتحتَ؟!! قلتُ لكَ منذ البداية إنه بحاجة لعلاج. ألم أقل لك إنه بحاج لعلاج؟!

- لقد قلتَ لي!

- وها أنت تُلقي بالنّصيحة عرضَ الحائط. بنصيحة واحد مثلي، أستاذ عِلْ اجتماع تخرَّجَ من تحت يديه آلاف الطّلبة على مرِّ السنين.

لم يجد رشيد النِّمر مَخرَجًا يفرُّ منه أمام ذلك الهجوم الكاسح سوى أن يقترب أكثر من الدكتور محاولًا تشمّمَ ملابسه بصورة أدقّ، وقد أحسَّ بلذع رائحةٍ كريهة.

- ما الذي تتشمّمه؟

- لا شيء!

- أتريد أن تقول لي إنني لم أزل أصحو ليلًا لأُغلقَ العدادات، لتصعدَ المياه إلى خزّاني الخاص دون خزانات الجيران؟!

- ومن قال هذا؟

- ابنك. الجيران. كلّهم يردّدون هذا!

- تلك مسألة قديمة، أليس كذلك؟!

- نعم إنها قديمة، ولكن رائحة المياه لم تزل مثلما كانت دائمًا!

- ربما كان ذلك بسبب تلوّث الأنابيب نفسها. إنها تحتاج للكثير من الوقت حتى تعودَ نظيفةً مثلما كانت.

- تصوّر، لم يعد الإنسان قادرًا على فَتْح فمه أمام تلامذته بصورة طبيعية!

- أفهم ذلك.

- تصوّر أنه لم يعُد قادرًا على الاقتراب من أيّ شخص دون وجود مسافا أمان!

- أتصوَّر ذلك. لقد أدركت الحكومةُ الأمرَ، فمنذ أيام مُنِعَ أيٌّ شاب أن يقترب من فتاته في الأماكن العامة دون أن تكون بينهما مسافة أمان: (ستّون سنتمترًا على الأقل)! هل تعتقد أن الحكومة تقوم بذلك رأفةً بحال الحبّ ومستقبل العشّاق؟!

الحكومة تحدد مسافة أمان
بين الشباب والفتيات
في الأماكن العامة

أصدر وزير الداخلية قرارا حـدد بموجبه مسافة الأمان التي لا بد من توفرها بـين أي شـاب وأي فتاة يجتمعان فـي مكـان عـام موضحا إلى أنها لا يجب أن تقل عن ستين سنتمترا، وحذر من أي خرق لهذا القرار مشيرا إلـى أن دوريات من الشـرطة سـتكلف بمتابعة هذه القضية لمـا باتـت تتركه من آثار سلبية على صورة البلد من النواحي الأخلاقية.

- ربما، ولكنني لستُ أدري إن كانت هذه المسافة كافية أم لا! أجاب الدكتور، وأضاف: هل تعتقد أنها كافية؟!

- لا أظن!

- ما الذي تعنيه من كلامك هذا؟ أرجو أن تقول لي ما الذي تعنيه فعلا؟!

- لا شيء.

- يبدو أننا على وشك الاختلاف، لنعد إلى مسألة ابنك. هذا أفضل! لماذا لم يُسلِّم نفسه هنا للشرطة، وهي بدوْرِها تُسلِّمه لـ (كيتي هوك)؟! كان على الأقل،

سيوفّر عناء رحلة ثلاثمائة كيلو متر يقْطعها بنفسه ذاهبًا، ويقْطعها في سيارات الشرطة آيبًا!

- هذا ما يُحيّرني!

- ما الذي يُحيّرك فيما يُحيّرك؟

- يحيّرني الذي يحيّرني فعلًا.

- إذن، فأنتَ تتّفق معي بأنه مجنون. فمن ذلك الذي ينسى أن هناك اتفاقية دفاع مشترك بيننا وبين أمريكا؟!

- أظنه نسيَ ذلك، ولكن هذا لا يعني أنه مجنون!

- تعريفي للمجنون هو: كلٌّ من يتجاهل أو ينسى أمرًا مُعْلَنًا بوضوح ومتَّفق عليه كهذه (الاتفاقيات)؟!

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟ أرجو أن تقول لي ما الذي تعنيه فعلًا؟! زمجر رشيد النِّمر غاضبًا.

- لا شيء.

- دعنا نُبسِّط الحكاية حتى لا نختلف أكثر.

- تفضّل.

- ابنك يتابع نشرات الأخبار؟

- نعم.

- وفجأة تقع أحداث 11 سبتمبر؟!

- نعم.

- يختفي في غرفته أيامًا طويلة بلياليها، وهو يتنقَّلُ ما بين محطات الغيارات الدّاخلية، وفي النهاية يغادر غرفته ويذهب للمرآة؟!

- نعم.

- وفيها يرى أن لحيته طالت كما لو أنه ليس هو؟!

- نعم.

- تحين منه التفاتة نحو جهاز التلفزيون في غرفة الجلوس ويرى صوَرَ المتّهمين بتنفيذ هذه العملية الكبرى معروضةً في نشرة الأخبار؟

- نعم.

- يعود للمرآة ثانية ليتأكد مما رآه فيها منذ لحظات؟!

- نعم.

- يتأكّد، فيعود لشاشة التلفزيون من جديد؟!

- نعم.

- وبين صور المتّهمين والمطلوبين يرى ابنك صورته؟!

- نعم.

- لحيته طالتْ بما فيه الكفاية بحيث حَسَمتْ الشكَّ باليقين؟!

- نعم.

- وهكذا يمضي بنفسه لتسليم نفسه وهو يصيح، كما قيل: (أين المفرّ)؟!

- نعم.

- لكنهم يعيدونه؟!

- نعم.

- لأنهم بحاجة لإلقاء القبض على المتّهمين الحقيقيين، لا على من يأخذ على عاتقه واجب تنصيب نفسه مُتّهمًا، لمجرد أن لحيته طالت دون أن يدري وهو يُتابع ذلك الفيلم الذي لا ينتهي، الفيلم الذي تبثه محطات الغيارات الدّاخلية

أيضًا على مدار الساعة؟!

- نعم.

- أوليسَ مجنونًا من يعتقد أن أمريكا يمكن أن تتّخذه عدوًّا، لا لشيء، إ!
لأنه يريد أن يُحقق شهوة أن يكون عدوًّا؟!

- نعم. ولكن الأمر مختلف. الولد لا يريد أن يكون عدوًّا لأمريكا، لا تُلْقِ عليه
تهمة بهذا الحجم، تهمة لا تغفرها أمريكا، ولا من وقّعوا اتفاقية الدّفاع المشترك
معها!

- المعذرة. لم أكن أقصد ذلك.

- وما الذي تقصده؟!

مرَّت عدّة طائرات في سماء المحادثة السّاخنة مُطْلِقَةً خلْفها ذلك الدّخان
الأبيض، ذهبتْ وعادتْ، شرّقتْ وغرّبتْ، شمّلتْ وجنوَبتْ. وحين غادرت، كان
السماء على شكل قفص هائل وقد تحولَّتْ خيوطُ الدّخان إلى قضبان حديديا
رمادية عملاقة!

نظر الدكتور إلى السماء وأطلق تنهيدة عميقة.

- هل ما زلت معي؟ سأله رشيد النِّمر وقد أحسّ بنفسه وحيدًا.

- المعذرة. هذا المشهد ذكّرني كثيرًا بعملي الجديد؟

- وهل هناك عمل آخر لك، غير الجامعة والتدريس؟!

- في فترات فراغي، وهي كثيرة والحمد لله، أسستُ مشروعًا جديدًا يمكنل
أن تُسميه: تجارة الأقفاص؟!

- تجارة الأقفاص؟ قال رشيد النِّمر ذلك، وقد نسيَ أن يُغْلِقَ فمه لفرْط

الدّهشة.

- نعم. تجارة الأقفاص. إنها تجارة المستقبل.

- تجارة المستقبل؟!!

- أجل. وإن كنت تريد الأخذ بنصيحتي فابدأ منذ الآن!

- ولماذا؟

- كم عمرك؟ لا. لا أريد أن أعرف. لأنني لا أظنّ أنك قد وصلتَ بعد إلى سن الحكمة ذاك.

- أيّ حكمة وأي سن؟

- السنّ الذي تُدركُ فيه أن الإنسان يمكن أن يتخلّى عن كلّ شيء، باستثنا القفص!!

- وهل أنا محتاج للوصول إلى ذلك العمر كي أعرف أن صاحب العصفور بحاجة دائما لقفص؟!

- مَنْ يتحدَّث عن الطيور هذه الأيام؟!

- أنا.

- أعرف هذا الانشغال الفجّ بعصفور الشّرفة.

- وكيف تعرف؟!

- ألا يحدُثُ الأمر في الشّرفة؟!

- أجل.

- كيف لا أعرف به إذن؟!

وصمت الدكتور كثيرًا، ثم قال له: لسبب ما أحببتُكَ كثيرًا، لأنك تذكّرني بشبابي على نحو غير عادي. (لا فرق كبيرًا في الحقيقة بين عُمريهما).

نصيحتي لك: هذا أفضل عمل يمكن أن تختتم به حياتك!

- ولماذا؟

- عجيب!! لم تزل تسألني: لماذا؟!

- نعم، لماذا؟

- لأنه لا يمكن أن يكون هناك رجل في العالم يشعر بحريته أكثر من ذلك الذي يبيع الأقفاص. هل فهمت؟!

- لا.

- أين كنا إذن؟! سأل الدكتورُ.

- لا أعرف.

- كأنك لم تكن تسمعني!

- وكأنك لم تكن تعني ما تقول، وإلا لتذكَّرتَ!

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟ أرجو أن تقول لي بصراحة ما الذي تعنيه، إن كنت تعني شيئًا بكلامك هذا؟!

- لا شيء.

- ها قد تذكَّرتُ؛ أترى لقد كنتُ أعني كلَّ كلمة قلتُها لك. ألم أقل لكَ إن الول بحاجة لعلاج؟!

- لا لم تقل. أقصد هذا ليس آخر شيء قلته لي قبل وصول الطائرات.

- ربما، ولكن المشكلة تكمن هنا.

- وما الحل؟

- الحل بسيط.

- وما هو؟!

- هناك زميل في الجامعة لديه ابن لا تختلف حالته عن حالة ابنك بشيء، سوى أنه لم يُسلِّم نفسَه.

- وماذا حدَثَ له؟!

- أصبح مُطارَدًا؛ هكذا بكلِّ سهولة. ولكن زميلي تدارَكَ الأمر وحلَّ المشكلة؟

- مع أمريكا؟

- لا.

- مع الحكومة بما يتّفق ومعاهدة الدّفاع المشترك؟!

- لا.

- مع مَنْ إذن؟!

- هناك رجل مؤمن يعالج مثل هذه الحالات يسكن في مدينة لا تبعد أكثر من ثلاثين كيلومترًا من هنا، حيث نقف.

- مُشعوذ يعني؟!

- لا تقل ذلك! إياك أن تقول عنه كلامًا كهذا، إياك!!

-حاضر. وهل تعرفه؟

- لديَّ رقم هاتفه الخلويّ!

- خلوي؟!

- نعم رقم هاتفه الخلوي!

- وهل يمكن أن تُعالَجَ قضية بهذه الخطورة على هذا النحو؟!

- الأمر مُجرَّبٌ، وبإمكانك أن تتّصل الآن مع زميلي الدّكتور.

- لا ضرورة لذلك. أصدّقك!

- لحظة.

راح الدكتور يضغط مفاتيح أرقام هاتفه الخلوي بسرعة غير عادية، وبعد قليل هتف بابتهاج: السلام عليكم (أبو العبد).

- ...

- لن أطيل عليك؛ لدينا حاله مثل حالة ابن زميلي. ربما أصعب بقليل!

- ...

- اسأَلْهُ عن الأجر الذي يريده. همس رشيد النِّمر للدكتور.

فأشار له الدكتور بحركة من يده التزامَ الصّمت.

- هذا الولد يعزُّ عليَّ كثيرًا، وأبوه صديقي!

انفرجتْ أساريرُ رشيد النِّمر.

- ...

- ولذلك نريدُ أن تُراعيه قليلًا.

- ...

- التّسعيرة ثابتة منذ ذلك اليوم المشهود؟!

- ...

- كم يريد؟ همس رشيد النِّمر.

أغلق الدكتور الهاتف براحة يده وهمس بسرعة:

- مئة دولار. ماذا أقول له؟

- مئة دولار!!

- بسرعة. لا أظن أن لديه وقتًا!

- أوكي! همس رشيد النِّمر.

- هل هناك أيّ طلبات أخرى للعلاج؟

- ...

- تفضّل.

أشار الدكتور لرشيد النِّمر أن يدوِّن الطّلَبات بسرعة.

- تفضّل.

- أُكتُبْ.

دُوري وببغا وزرزور

بلبل حسّون وشحرور

كناري بيضوي كالنُّور

- كناري بيضوي كالنُّور؟!!! ردّد رشيد النِّمر مستغربًا.

- نعم، كناري بيضوي كالنُّور. زجره الدكتور.

- تسألني كم أصبح عددها؟! كم أصبح عددها؟ سأل الدكتورُ رشيدَ النِّمر. الذي راح يعدّها بسرعة.

- سبعة.

- سبعة.

أغلق الدكتور هاتفه، حدَّق في وجه جاره ثم قال بهدوء: الآن الكُرة في ملعبك!

- شكرًا لك.

- لا شكر على واجب، فالجارُ للجارِ حتى لو جارَ!!

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟ أرجو أن تقول لي بصراحة ما الذي تعنيه إن كنت تعني شيئًا بكلامك هذا؟!

- لا شيء.

يوميات 2

أدار ابنه الصغير وجهه بغضب.

- لا تريد أن تشتري لي؛ إذن عليك أن تتحمَّل المسؤولية كاملة.

ولأول مرّة يداهم رشيد النِّمر ذلك الإحساس المخيف بأن الولد لا يقول هذا الكلام جُزافًا!

- ماذا يعني؟! سأل امرأته.

- يعني ما يعنيه! أجابت.

- وما الذي يعنيه فيما يعنيه؟!

- يعني أنه يعني كلَّ كلمة قالها.

- وهل عليَّ أن أخاف؟

- ربما عليك أن تخاف!

- ولماذا؟!

- لأن هذا أقلّ ما يمكن أن تحسَّ به حين يهددك الولد وهو يعني ما يعنيه!

* * *

ثلاث مرات قال له ابنه الصغير: أريد همبورغر!

- هامبورغر؟ وماذا فيه هذا الهمبورغر غير الدّهون الميتة التي لا نعرفُ من أيّ حيوانات الله قد استُخرِجَتْ؟!

- لا تنس أن هناك عناصر غذائية أخرى. البطاطا، الخضار وما إلى ذلك. والجبن أيضًا. كيف نسيتُ الجبن؟!

- هذا لا يعني شيئًا. إنهم يرشُّون على الموت سُكَّر.

- وماذا ترشّ عليه؟! عصافير؟!!

- أنا أرشُّ على الموت عصافير؟!

- ومن لا يعرف ذلك. الجميع يعرفون هذا ويتحدّثون عنه.

- وماذا يرشّون على الموت، حضراتهم، الذين يقولون إنني أرشّ على الموت عصافير؟!

- إنهم يرشون عليه عصافير أيضًا!

- ولماذا يتحدّثون عني إذن؟

- لأنك مثلهم!

- وما الذي يعنيه هذا؟!

- يعني ما يعنيه تمامًا!

- وماذا يعني؟

- بإمكانك أن تسألهم، فأنا خارج هذه القضيّة أصلًا!

* * *

عند منتصف الليل سمع طَرَقات قويّة على الباب..

نهض..

لوهْلَة اعتقد أنه يحلم..

مسح جبهته

فارتطمتْ أصابعه بورقة ما مُلْتصِقَة بها..

منعته أمه من تناول الآيس كريم
فاستنجد بالشرطة

سبير (المانيا) ــ أ ف ب: اتصل طفل في السابعة مــن عمــره بشرطة سبير في غرب المانيايستنجد بها ضد أمه التي انتزعت منه الكريمة المثلجة (الآيس كريم).
وقال مصدر في الشرطة أن الطفل

انتزع الورقة، أشعل الضّوء الجانبي.. رأى ذلك الخبر الغريب:

كوَّرَ الخبر وألقى به بعيدًا.

عاد للنوم.

لم يكن على يقين إن كان قد غفا أم لا، حين عادت الطَّرَقات تدوّي بشكل أكبر على الباب.

وقبل أن يعتدل في السّرير، امتدّتْ يده إلى جبهته باحثة عن شيء ما قد يكون عُلِّقَ عليها ثانية.

ازدادت الطَّرَقَات قوة، انتصبَ فَزِعًا.

- لا أراك هكذا إلّا حين يرنُّ الهاتف أو يطْرُقُ الشّرطيّ بابك في الليل! قالت امرأته.

- ماذا؟

ولم تُجب. كانت نائمة.

سار عبر العتمة مترنّحًا.

- مَنْ هناك؟

- ومن يمكن أن يأتيكَ في ساعة كهذه؟!!

- حضرة الشّرطي؟

وهمس رشيد النِّمر لنفسه: كانت تعرف!!

- حضرةُ الشرطي! نعم! حضرتي!

أشرعَ الباب.

- ألا يكفي تقصيركَ مع ولدك الكبير لتجرَّ نفسكَ بنفسك إلى مشكلات أعوص وتفتح دفاترك القديمة من جديد؟!

- ماذا تعني؟!

- أعني ما أعنيه تمامًا!

- وما الذي تعنيه فيما تعنيه؟!

- أنْ تحلّ المشكلة مع ولدك الصغير لتمرَّ الأمور على خير!

- أية مشكلة؟

- مشكلة الهمبورغر!

- وهل تُعْتَبَرُ هذه المشكلةُ مشكلةً؟!

- بالتأكيد. لقد أمضى الليل وهو يحاول الاتصال بحاملة الطائرات (كيتي هوك)؟!!

- ولماذا؟

- لأنه يريد أن يُقَدِّم شكوى ضدك!

- شكوى ضدي؟! ولماذا؟!

- ألم تفهم بعد؟!

- لا لم أفهم بعد!

- لأنك تمنعه من شراء الهمبورغر.

- لهذا وضع ذلك الخبر على جبهتي! كان يهددني إذن!!

- تستحقّ ذلك لأنك تمنعه.

- وما المانع في أن أمنعه؟!

- المانع انكَ ستصحو ذات ليلة لتجد حاملة الطائرات (كيتي هوك) تحت شباكك تمامًا.

- تحت شباكي هنا في الشارع الـDead End؟!! وكيف يمكن لسفينة بحجمها أن تصل هنا.. إلى هذا الشارع أصلًا؟

- ها أنت تواصل ثرثرتكَ التي بلا معنى.

- وما الذي تريد أن أقوله حين تقول لي: إنني قد أصحو ذات ليل وأجد الـ (كيتي هوك) تحت شباكي؟!!

- يا حمار! الأمريكان وصلوا القمر، فهل تستكثر عليهم أن يصلوا بالـ (كيتي هوك) إلى تحت شباكك؟!

- لا أستغرب! ولكن!

- لا تستغرب! إذن اذهب إلى أقرب محلّ همبورغر الآن واشتر للولد ما يريد!

- في هذه الساعة؟! وهل هناك محلات تبيع الهمبورغر الآن؟!

- اطمئن. إنهم بانتظارك.

- بانتظاري؟

- نعم، فلديهم عِلْم كامل بالموضوع!

- ولكن كيف عرفوا بالموضوع؟!

- لقد اتّصلت الـ (كيتي هوك) بنا، فاتّصلنا بهم بعد أن وعدناها بحلِّ المشكلة! وعليك أن تحمد الله أنهم يُوكِلون إلينا مثل هذه المهمّات!

- ولماذا أحمده؟! أستغفر الله العظيم، على أمرٍ كهذا؟

- عليك أن تحمده لأن بيننا وبينهم اتفاقية دفاع مشترك. هل فهمت؟!

- لا.

- إذن اذهب من فورك الآن واشتر للولد ما يريد وإلّا سأضطرّكَ مُرغمًا أ
تفهم. مفهوم؟!

- مفهوم!

المفاجـأة

نام طويلًا

وحينما استيقظ ذات صباح

لم يجد نفسه في السّرير

وجد رجلًا آخر

ذهب إلى المرآة

كما يمكن أن يفعل أيّ رجُل عاقل يجد نفسه وجهًا لوجه

مع معضلة كهذه

تأمَّله طويلًا

لم يكن يعرفه أبدًا.. لم يُذَكِّرْه بأحد

وهكذا اعتبر الأمر لا يعنيه

بعد قليل عاد به للسّرير

هيأ له المخدّة

أفرحه أن زوجته لم تستيقظ

وفكَّر أن يترك لها هدية متوحِّشة تليق بها:

رصاصة في جبين هذا الرجل الغريب النائم بجانبها

لكنه لم يفعل، لأنه لم يكن يملكُ، ببساطة، أيَّ أسلحة من ذوات الرّصاص.

عاد خطوتين

تأمَّل الرّجلَ النائم بجانبها

الرّجل الذي لا يُذكّره حتى بشيء

وبصمتٍ مضى للمرآة

كان يمكن أن ينتهي الأمرُ عند هذا الحدّ
أعني:
ألّا يعود للمرآة.

بهدوئه المعهود
هدوء القتيل الذي لم يعد يُفكِّرُ بالحياة خائفًا من رصاصة أخرى تعبره
تأمَّل الرّجُلَ الذي في المرآة
لم يعرفه... لم يُذَكِّره بأحد أو بشيء
لكنه بدا رجلًا مُستسلِمًا لقدره كصحراء
ما الذي يمكن أن يفعله برجل آخر؟!
رجل آخر لا يعرفه؟!
عاد للسرير، أبعدَ الرجلَ الأول
وحينما تأكّد له أن السّرير أكثر اتّساعًا مما كان يتصوّر
وضعه بجانب الرَّجل الأول
وهكذا ظلَّ يفعل طوال اليوم
لكن الذي أرَّقَهُ آخر النهار
أن امرأته لم تفتح عينيها
هزّها قليلًا
فتحتهما أخيرًا بكسل
تلفَّتتْ حولها باحثة عن تلك اليد التي هزَّتْ نومها
لم تجدها
وحيّره أكثر أنها لم تره، أو أن فيها كلّ هذه القدرة كامرأة تصحو فجأة

وتدّعي أنها لا ترى في الغرفة أحدًا سواها؛ وحتى أولئك الرجال الذين كوِّموا الواحد فوق الآخر، وكانوا إلى حدّ بعيد يشبهون تلَّ الرّجال في سجن أبو غريب:



حدَّقتْ في السّاعة الإلكترونية التي تومض باحمرارها المعهود

وهمستْ: إنها السّادسة!

قال لها: إنها السادسة مساء!

لكنها لم تُعِرْه انتباها..

امتدتْ يدها، سوَّت اللحاف

فتساقطَ أكثر من خمسة رجال على جانبي السّرير!

وعادت للنوم!

* * *

تأمّل امرأته. لم تكن هي..

بحث عن صديقه الذي يُتْقن التبرُّمَ جيدًا،
وجده هناك، كالعادة، في المكان الأثير إلى قلبه،
المكان الذي التقى فيه ذات يوم صديقته البيضاء ذات العينين الخضراوين..
المكان الذي لم يتنازلا عن اللقاء فيه لصالح أيّ مكان سواه.
(سنأتي على ذِكْرِ السّبب لاحقًا)

وقبل أن يُنهيا الكأس الثاني، اكتشف أن صاحبه مات، لكنه واصل الجلوس قبالته وهو يُحدِّثه في مواضيع لم تكن تهمُّ أيًّا منهما.

كم أرَّقَه أن يكتشف النادلُ، فجأةً، أن صاحبه قد مات.

قال له: في صحَّتك!

وفوجئ بيد صاحبه ترتفع وبشفتيه تنفرجان.

ها هي الابتسامة المثالية المُعلَّقة بمسمارين بارزين!

- كأنه لم يَمُتْ بَعدُ. قال لنفسه.

وحمد الله كثيرًا، لأن ذلك يعني أن يراه مرّة أخرى، في هذا المكان ويدَعَهُ يشكو كما يحلو له، بل وأكثر.

حين نهضا باحثَين عن سيارة، كان صاحبه فَرِحًا تمامًا، وعندها أيقن أنه قد ماتَ فعلًا!!

لم يجدْ صعوبة في العثور على سيارة، رغم أنه لاحظ تردّد السائق قبل توقّفها بثوان؛ ولم يكن تردّد رشيد النِّمر أقلّ، فقد كانت السيارة على شكل قفص كبير مُتقن الصُّنْع!

أشرع لصاحبه الباب الأمامي بنفسه، هذا أقلّ ما يمكن أن يفعله في مناسبة كهذه: (احترام الميت!) لكن المفاجأة التي حدثتْ أن الكرسيّ لم يتَّسع

له، وعندها أغلق الباب بلطف (وهي واحدة من فضائله التي لا بدَّ يذكرها كثير من سائقي سيارات التاكسي والسرفيس، لندرتها).

أشرع الباب الخلفي حيث المقعد الواسع وأجْلَسه هناك.

حين انطلقت السيارة، كان أول ما قاله السائق: دُنْيا!! قريبك؟!

- صديق عمري!

- ستفتقده كثيرًا، من الصّعب أن يكون للمرء صديق عُمْر في هذا الزمان!

هزَّ رشيد النِّمر رأسه بأسى، وهبطتْ دمعتان كبيرتان على خديه، فامتدتْ يده للكرسي الخلفي تُربِّتُ هناك على خشب النَّعش الذي احتلّ المقعد بأكمله!

وفي محاولة منه لإخفاء دموعه راح ينظر خارج السيارة - القفص..

ولأول مرة يكتشف أن الدكتور كان على حق..

- كيف لم أسمع كلامه؟ وبَّخَ نفسه.

لم تكن هناك شرفة وقعتْ عيناه عليها، إلّا وكان فيها أكثر من قفص.

أقفاص لنباتات الزّينة الاستوائية الخضراء..

أقفاص للزّهور ذات العمر القصير..

أقفاص للنعناع وللورد الجوريّ..

أقفاص للقرنفل..

وأقفاص كبيرة للياسمين تصل أسفل الجدران بنهاياتها..

وحينما انعطفت السيارة باتجاه الدوّار الكبير، اتّسعتْ عيناه دَهَشًا أمام ذلك الإعلان العملاق الذي وُضِعَ في مكان مدروس بعناية:

قفص كبير للغاية، وجبة طعام شهية في داخله تحفُّ بجنباتها شرائح البطاطا المقليّة، وخُضْرَة الخسّ الأكثر يناعة من حديقة عامة! وعبوة السَّلَط

التي يسيل لها لعابُ، حتى أولئك، الذين انتهوا من تناول طعامهم للتّو. وخارج القفص، شاب يعمل بجنون للوصول لتلك الوجبة، في محاولة مستميتة لتمرير جسده من بين أسلاك القفص المعدنية السَّميكة وقد نبتتْ لحيته وتفصَّد عرقه.

هزّ رشيد النِّمر رأسه وقد تذكَّرَ حكايته مع ولده الصغير.

* * *

قبل العاشرة بخمس دقائق سوَّى جلسته كي لا يفوته أيّ شيء من الفيلم وكالعادة، كان لا بدَّ له من مشاهدة موجز الأخبار مُرْغمًا.

أطلَّتْ المذيعةُ بصورة جديدة تمامًا:

(نيو لوك)..

ثيابها مخططة عموديًا وأفقيًا.

الطاولة أمامها على شكل قفص

جهاز الكمبيوتر الذي تقرأ منه الأخبار على شكل قفص.

وخلفيّة المشهد كلّها كانت قفصًا

وعَبْرَ قضبانه كان يُشاهَدُ العاملين في الأستديو يتنقَّلون داخل أقفاص خاصّة.

للحظة، فكّر أن فيلمَ الخيال العلمي هذا قد بدأ، وأن نشرة الأخبار لا بدّ انتهتْ دون أن ينتبه، لكن الأمر لم يكن كما تصوَّره أبدًا..

بل كما رآه..

...

في نهاية الفيلم، أُعيدَ الهارب للسّجن والمرأة ماتت بالسرطان!

أغلقَ التلفاز بهدوء. مضى للحمّام. غسل أسنانه، جيدًا، كعادته، دون أن

يستطيع منع نفسه من نسيان الوسائل الجديدة المبتكرة لاستخدامات الأقفاص.

وللحظة أحسّ أنه وصل لتلك الوجبة الشّهية وأنه يبتسم.

- ولماذا لا تعترف بأنكَ مثلي؟!

تلفّتَ حوله فَزِعًا، ورأى ابنه الصغير يغادر الحمّام.

بعد زمن طويل تذكّر سبب دخوله.

بعد زمن طويل نسي تمامًا ما قاله ابنه.

غسل أسنانه بعناية..

(مَنْ يعرف متى يحين الوقت الذي يحتاج فيه المرءُ لاستخدام ابتسامته!)

لكنه كان حذرًا تمامًا من أن ينظر في المرآة،

(ليس ثمة ضرورة لقول السبب)

عَبَرَ الممرّ المعتم، تأمَّل امرأته، تأكّد من أنها ميتة كصاحبه..

وأطفاله.. تأكّد من أنهم ميتون أيضًا

- ما الذي كان ينتظرهم على أيّ حال؟! وصول أبناء الجنود الذين عمّرو أبو غريب بفحولتهم؟! أم أولئك الذي ظلّوا يطلقون النار على ذلك الفتى وأبيه تحت الجدار؟! في أطول حفلة إعدام عرفها التاريخ:



بصعوبة استطاع انتزاعَ حصّته من اللحاف حيث كانت تشدُّ قبضتها عليه ككمّاشة. سمع تمزُّقَ قماشه المُوَرَّد، توقَّف خائفًا من أن تستيقظ.

(ذات يوم سيغدو اللحاف لحافين!)

نام...

(أغنية)

إنها لحياة خالية من الهموم تمامًا
لا يعرفها إلّا أولئك الذين يشبهونه تمامًا:
أن ينتظروا مرّة في الأسبوع مكالمةً من صديق ميت
وأن يتحدّثوا بجدّيّة مع أنفسهم
حول فضائل امرأة لم تعد معنية بأن تظلَّ امرأة
وأن يُربي أولادَ رجل آخر.. يشبهون أبناءه.. وميتين!!

سين مخفّفة

لم يكن صعبًا على الشّرطيّ أن يعرف بحدْسه أن هناك مَن يتعقّبه!

ولذلك، بدأ العملَ بسرعة: أصبحتْ خطواتُه، فجأة، أطول، بحيث بد كشرطي يركض محاولًا اللحاق بمجرم فارّ. وفي لحظة اختفى.

عمَّ الصّمتُ المكان، فتلاشتْ أصواتُ العربات وضجةُ الشارع وصرخا البشر الفَرحين بأقفاصهم الممتلئة بعصافير جديدة، وقد كانوا يعبرون عن جانبي رشيد النِّمر بهمّة قاصدين مراكز الأمن ودوريات الشرطة ومحلات بيع العصافير لتسليمها واستلام أثمانها.

لم يسبق أن كانت هناك تجارة سريعة رابحة مثل هذه، سوى تجارة أجهزة الستلايت بأطباقها اللاقطة، التي غدتْ على شكل أقفاص صغيرة مبتكرة فعلًا؛ بعيدًا عن شكلها القديم الذي لا يُذَكِّر سوى بأواني الطّعام العملاقة. وإذا ما أردْنا وصفها بدقّة أكثر فسنقول: إنها تطوير فذٌّ لهوائيات التلفزيون! ولكن، بدل أن تكون القضبان مصفوفة بشكل أفقي تمَّ تحويلها إلى مربع قفصيٍّ بستِّ جهات، رأى فيه رشيد النِّمر إشارة ذكيّة عادلة للجنوب والشمال والشرق والغرب والأعلى والأسفل! وقد كان اللاقط مثبتًا في وسط القفص على هيئة دائرة تُذكِّر بعصفور. ولكنْ، بدل أن تسمع الغناء فوق السّطح تسمعه تحته في الغرف، كما تشتهي، غناء لا يتوقَّف، ليست بدايته: (روتانا) ولا نهايته: (مُوْلُدِيْ)!

فجأة، ووجها لوجه، وجد رشيد النِّمر نفسه مع ضباب يُغطي كل شيء. وفكَّر: هل يكون الشرطي أحسّ به ففجّر قنبلة دخان ليختفي؟! وقبل أن يجيد سمع صرخة الشّرطي ووجهه قربَ وجهه: ماذا تريد؟

- لا شيء. لا شيء أبدًا. فكل ما أريد قوله: إنني حاولتُ كثيرًا. صدّقني حاولت.

- حاولتَ ماذا؟ سأله الشرطي بنفاد صبر.

- حاولتُ أن أتفادى تربية عصفور في الشّرفة. لكن الأمر حدثَ رغما عني!

- نحن نعيش مرحلة جديدة يمكننا فيها تفهُّم أمر كهذا!!

- لكنني في المقابل شجعتُ الولد على الذهاب للصّيد، ويبدو أنني نجحتُ قليلًا، لكنه لم يتصرّف بصورة جيدة!

تحفّز الشرطي: ماذا تعني بقولكَ: (لم يتصرّف بصورة جيدة)؟

- إنه ولد بريء أكثر مما يجب. إذ يبدو لي أنه لم يعد يحقد على العصافير كما ينبغي! لا لشيء، إلّا لأنه يريد كلبًا.

- كلبا؟! سأل الشرطي مستغربًا.

- نعم، ولذلك لم يَعُد حتى الآن بعصفور واحد. بل قال لي أيضًا إن العصافير يمكن أن تجلب لنا الكثير من المشاكل!

- وما الذي كان يعنيه بكلامه هذا؟!

- قال لي إن العصفور قد يُفسِد علاقتنا بالجيران؟

- وكيف يمكن لعصفور أن يفسد علاقتكم بالجيران؟!

- أن يبدأ بتوجيه الشتائم لهم!!

- وكيف يمكن لعصفور أن يشتم الجيران؟!

- لقد قرأ في الجريدة عن رجل صينيّ درَّب طائره على شتْم جاره، ما دفع الجار لُمقاضاةِ صاحب الطائر!

- وما نوع ذلك الطائر؟!

- إنه من فصيلة (المينة)، نوع من الببغاوات ربما؟ وها هو الخبر معي. أنظر.

- ناولني إياه.

صيني يقاضي جاره لأنه درب طائره على شتمه

□ هونج كونج - (د ب أ)

ذكر تقرير إخباري أن صينيا رفع دعوى قضائية على جاره، متهما إياه بتدريب طائره من فصيلة المينة على شتمه.

وقالت صحيفة ساوث تشاينا مورننج بوست إن الجار المتضرر ويدعى لي ديبن قدم للمحكمة شريط تسجيل للطائر سليط اللسان يصيح فيه بكلمات ''لي ديبن ابن زنا''، مطالبا بأن يتقدم له صاحب الطائر باعتذار وأن يدفع له مبلغ ألفي يوان (٢٤٢ دولارا) على سبيل التعويض.

- لقد قلتُ دائمًا إنّ على الحكومة أن تَحْظر دخول الببغاوات إلى البلد؟ قال الشّرطي وقد سرَحَ بعيدًا.

- لماذا؟

- ألم تفهم بعد؟! لأنها طويلة اللسان، وقد يؤدي ذلك إلى أن تتطاول أَلْسِنَةُ عصافيرنا علينا، فتصوّر أن تبدأ بسماع الإهانات توجّه إليك من فوق غصون الأشجار وسطوح البيوت والسماء دون أن تستطيع عمل أي شيء!!

- إنها مشكلة فعلًا، لكن الأمر في اعتقادي أصبح أعقد من ذلك؟!

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟!

- لا شيء.

- لقد بدّدتَ الكثير من وقتي دون فائدة. قال له الشرطي بغضب. ثم نظر إليه بتوجُّس وأضاف: أم أنك جئتَ لتعترف بطريقة غير مباشرة أنك تفكّر بتربية ببغاء؟!

- هذا آخر ما يخطر ببالي! فقط، تربية عصفور لا أكثر، من تلك التي لا تُتقنُ سوى الغناء. هل تسمح لي بالعودة لموضوع الولد؟

- أي ولد منهما؟

- الولد الصغير.

- في قضيته أنت المسؤول عن عدم قدرته على اصطياد العصافير. هل زوّدته بالوسائل المُثلى لذلك؟

- كل ما يلزمه.

- ولم ينجح؟!!

- لا، لم ينجح.

- ما الذي تريده إذن؟!

- فقط، كنتُ أريد أن أقول لكَ ذلك حتى لا تلومني مثلما حدث مع ابنه الكبير.

- إنه الآن في غوانتنامو!

- هكذا قيل لنا. ولذلك أُمضي الكثير من الوقت في محاولة أن ألمحه وسط واحد من تلك الأقفاص الكبيرة.



- على أي حال أريد أن أحذِّرك. مسألة الولد الكبير مرَّت على خير، معنا على الأقل! بلا سين وبلا جيم. ليس تماما!! فالسِّين كانت مُخفّفة، والجيم أيضًا، ولذلك لم يُتْعِبوكَ بهما. ولذا، عليك أن تُبقي عينيكَ مفتوحتين على ولدا الصغير. وحتى وقوعه بين يديَّ سأتصرف معه باعتباره طفلًا بريئًا، ولا شي أكثر!

تركه الشرطي مكانه ومضى مبتعدًا. لحقه رشيد النِّمر.

- وبعدين!! ماذا تريد؟ همهم الشرطي بغيظ.

- كنت أريد أن أقول إنني حاولتُ أن أقنعه، ببعض مساعدة مني باصطياد شيء آخر عَلّيْ أفتح شهيته لصيد العصافير! فكّرتُ بأن أعلِّمه اصطياد السمك، لكنك تعرف الصعوبة التي يواجهها إنسان يفكر باصطياد سمكة هنا، حيث لا أنهار تجري قريبة ولا بحار يمكن الوصول إليها بسهولة. ولذلك، اكتفينا في النهاية باصطياد وتربية بضع دودات صغيرات، مثل تلك التي تعرفها، أقصد نعرفها جميعًا، أعني دود الربيع. ولكنها ماتت. والولد قال: الحمد لله أنها ماتت! سألته: لماذا؟ فردَّ: لأنها لم تنبح! فقلتُ له: إذا ما أتيتُ لك بضفدع نقّاق، نبّاح، مثلكَ، أعني مثله، فهل هذا يُرضيك؟!

- وبماذا أجاب؟!

- قال لي.. إذا كنت لا تستطيع اصطياد سمكة فكيف ستصطاد ضفدعًا؟!

وعمَّ الصمتُ من جديد.

- لم أعد أفهم شيئًا. ما الذي تريد قوله؟ وما المشكلة؟! صرخ الشرطي.

- المشكلة أنني أنا الذي فكَّر في العصفور والقفص، وكلَّ هذه المصائب.

المشكلة أنني أنا الذي أرغمتُهم على القبول بفكرتي!

- نحن نتفَّهم ذلك، أب بريءٌ ولا شيء أكثر!

- صحيح؟

- بالتأكيد!

باب الفضول

لأيام طويلة بلياليها، ظلّ يفكِّر في المسألة: في الجهات وعدسات الكاميرات ونباتات الشّرفات وسطوح البنايات المنخفضة المزروعة بصحون الستلايت وهوائيات التلفزيون التي تشبه الأقفاص..

لا شيء.. لا شيء أبدًا.

حاول أن يبوح لامرأته بما يحسّه، لكنه لم يكن قادرًا على تفسير شيء.

حاول ثانية..

وقبل أن يفتح فمه، جاءه صوتها من الطرف الآخر للسرير: أنتَ السَّبب!

- السبب في ماذا؟!

- في كلِّ شيء. لو أنك بقيتَ هناك في (الخليج)، لكان الوضْعُ اليوم أحسن ألف مرّة.

- وضْعُ مَن؟!

- وضْعُنا.

- ولكن لا علاقة لكِ بمسألة عودتي، لأنكِ لم تكوني موجودة أصلًا!

- هذا لا ينفي أن وضْعَنا كان يمكن أن يكون أفضل!

- احمدي الله أنني استطعتُ شراء هذه الشُّقة، وإلّا لكنتِ تنامين الآن في مكان لا يشبهها أبدًا؛ واحمدي الله أنني عدتُ إلى هنا، فلو بقيتُ هناك لما عرفتكِ أصلًا، وربما كان وضْعُ امرأة أخرى هو الأفضل، وليس وضْعك.

- ربما، ولكن كان سيكون وضْعُنا أفضل بالتأكيد. الآن، أنظر إلى نفسك تسير إلى جانب الجدران كما لو أنها ستسقط عليك، وتُغلق باب الشرفة وشبابيك المنزل كلّما أردتَ أن تتنفّس!

وصمتتْ، ثم سألته: ما الذي كنتَ تريد أن تقوله؟!

- كنت سأقول لو أنني بقيت في الخليج لكان ذلك أفضل!

- إذن أنتَ توافقني الرّأي؟

- لا!!!

* * *

لم يُغمض عينيه. ولكن شعورًا غريبًا باغته (أنه نام)..

نعم، نام بعينين مفتوحتين، كما تنام الغزلان؛ ولطالما وصفتْ أمُّه نومَه على هذا النحو، فقد كان غزالًا في عينها ولم يزل!

كان أوّل شيء يفعله حين وصل المركز: أن جرَّ الطاولة إلى منتصف السّاحة، أخرج البوصلة من جيبه، وضعها فوقها، تأكد تمامًا من أمر إبرتها، مع أنه لم يعد بحاجة لأن يتأكّد. فحين يصل باب المركز صباحًا، تكون الشمسُ على يمينه تمامًا، وعندما يغادره تكون على يمينه أيضًا، أما الجنوب فيكون خلْفه صباحًا وأمامه مساءً!

أدار الطاولة إلى الغرب، وتأكّد من أن النقطة الحمراء تشير إلى ذلك الاتجاه الغامض.

أحضر كرسيًّا.

مضى نحو الباب الخارجي. تأكَّد من أنه مقفل بإحكام.

وقف خلفه قليلًا ليتمكَّن من سماع أيّ حركة أو كلمة مشبوهة.

لم يكن هناك ما يشير إلى شيء غير معتاد.

دار حول نفسه، حتى تأكّد من أن السّطوح المجاورة خالية من البشر.

(كانت خالية!)

تقدَّم نحو الكرسيّ بهدوء، وصعده، كمن يحاول تسلُّقَ سور عال بغرض السَّرقة.

انتصبَ فوقه.

تلفَّتَ حوله.

لا شيء!

رفع قدمه اليمنى، وضعها فوق الطّاولة، وفي حركة سريعة وجِلَةٍ، تعاونت قدماه معًا على رفْعه إلى سطح الطاولة.

كان خائفًا إلى ذلك الحدّ الذي لم يستطع معه أن يرفع رأسه فجأة، بقي منحنيًا للحظات مثل جنديٍّ في خندق، مثل جندي يتعرَّض موقعه لزخَّات مجنونة من رصاص ثقيل.

أخيرًا، جمع نفْسَه وانتصب واقفًا على طول امتداد قامته.

كان، بالتأكيد، أطولَ بكثير من تلك الصحفيّة، ولعلّ ذلك وحده ما جعله أكثر ثقة في أنه سيرى أكثر منها ومن عين كاميرتها البارزة على ذلك النحو الذي ذكَّره بعيون توم آند جيري.

بدأ بالشّرق، لم ير شيئًا، استدار للجنوب، لم ير شيئًا، ثم عاد واستدار للشرق قبل أن يستدير للشّمال، مُحاذرًا، بالطبع، أن ينظر إلى الغرب بصورة مفاجئة.

لم يرَ شيئًا

ظلَّت عيناه تحدِّقان في الشّمال طويلًا وهو يفكّر في ذلك الذي يفعله، ومدى خطورته، وهل يحقُّ له ما يحقُّ للصّحفيين أم لا؟ وهل كان على الرّجل العجوز أن ينبهه إلى أن هناك صحفيين أجانب، وهؤلاء أطولُ قامةً منّا في حالات

كثيرة؟! وهل عليه أن يأتي لهم بطاولة حين يأتون؟ أم يَدَعَهُم يعتمدون على قاماتهم وحدها؟!

أربَكه الأمر..

وبسرعة من يريد اقتلاع أحد أسنانه بنفسه مُستخدمًا يدَ الباب أو حجرًا كبيرًا التفتَ بسرعةٍ إلى الغرب..

ذكريات 1

(ليل.. خارجي)

ذات يوم سألَه صاحبه الميت:

- ما الذي تتمنّاه أكثر من وجود عينين لك؟

فقال: جفونا!

- وما حاجتك لهما؟!

- لكي لا يُرى قعْرُ روحي!

سأله: وما الذي تتمناه غير وجود الجفنين؟

- نومًا هنيئًا بداخلهما!

- وما الذي تريده بعد النوم؟

- أحلامًا غير شريرة لا تذكِّرني بالنّهار!

- وما الذي تريده أكثر من قدمين يمكن أن تحملاك بعيدًا؟

- أتمنى وجود الطريق!

- وما الذي تتمنّاه من وجود الطريق؟

- أن أذهب إلى آخره، ثم ألتفتُ خلْفي وأرى الأشياء بعيدة!

- وما الذي تريده من البُعد؟

- من البُعد؟! أريد أن أتأمَّل نفسي في مرآة لا تعكس صورتي!!

- أوليسَ هذا صعبًا؟

- وما وجه الصّعوبة في ذلك؟

- هذا يعني أنك ستكون حيث كنتَ، بلا جفنين، وبأحلام تُذكِّرُكَ بالنهار وبلا طريق، وفوق ذلك كلّه، وحيدًا، مع هذه المرآة العمياء!!

وسأله صديقه الميت: ولماذا تصاحبني؟!

- لأنني لا أستطيع أن أرى نفسي فيك!

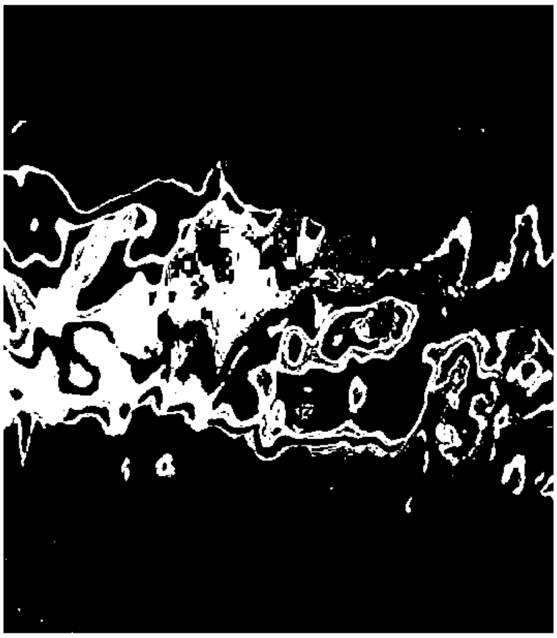
- ولماذا لا ترى نفسك فيّ؟!

- لأنك بلا عينين! فهمتَ قصدي، أليس كذلك؟

- ولكنّ لي جفنين، عكسكَ!

- وما الذي يمكن أن يفعله المرء بجفنين بلا عينين؟!

- يفتح بهما فوهة البئر الذي في جمجمته.. بئر الأحلام!



- وما الذي يمكن أن يفعله المرء ببئر أحلام وقد وُلدتَ أعمى؟!

- يستطيع البحث عن صديق يملك عينين!

- وما الذي يمكن أن يفعله بعيني صديقه؟!

- أن يقتلعهما، ليُصبحا صديقين أكثر!!

- هذه الفكرة لم تخطر لي من قبل!

- لكنك تحسّها جيدًا؟!

- وما أدراك؟!

- لأنكَ اخترتني من دون خلق الله واخترتك.

.....

- هل هذه قامتُك التي أتوكأ عليها؟

- أظنّ!

- وهل هذه قامتك؟

- أظن!

- نحن غير متأكّدين من وجود قامتينا إذن؟!

- ولماذا نتأكد؟!!

- وغير متأكّدين من وجود أعيننا.

- ألم تقل لي بأن لك عينين؟ ولا ينقصهما سوى جفنين؟!

- قلت لكَ ذلك، ولكنني لم أعد متأكدًا من وجودهما بعدما رأيتُ العصفور يكبر بسرعة على ذلك النّحو، ورأيت ما رأيت حين صعدتُ الطاولة!!

- إذا أردت أن نبقى أصدقاء فدع أمرَ الطاولة جانبًا! أمّا العصفور فلا أحبُّ سماع أيِّ شيء عن كلِّ ما له ريش، حتى الدّجاج!!

- لا تخدعني. أعرف أن لديكَ دجاجة بيضاء!!

- لا، لم يكن لديَّ دجاجة بيضاء في أيّ يوم!!

- بل لديك. وأنا رأيتُها بأمّ عيني.

- لن أعترف لك بهذا، حتى لو رأيتها بعينيك. لن أعترف إلّا إذا رأيتُها أنا بنفسي!

- ولكنّك أعمى!

- ولهذا، ليس باستطاعتك أن تُثبتَ أن لديَّ دجاجةً بيضاء!
- لأنني لا أملك جفنين؟!
- بل لأنني أعمى!
- ولماذا لا تعترف؟
- لماذا؟!! لأنك شخص لا يمكن الاطمئنان إليه في أمر كهذا!
- وإذا ما أثبتُّ لكَ أن لديك دجاجة؟
- حتى لو استطعت أن تُثبتَ أن لديّ دجاجة، فلن تتمكّن من إثبات أنه بيضاء!!
- اختلافُنا على اللون إذن؟!
- لا، بل على وجود دجاجة بيضاء! ولذلك أرجوك أن تقفل هذا الباب تمامًا.
- ولماذا؟!
- لأنك ستعيدنا من جديد لسيرة العصفور.
- أنت الذي تصرُّ على أن تُذكِّرني به.
- لا، بل أنت الذي تصرّ على أن ترويها، حتى تذكّرني بأن لك عينين، وها أنت الآن تحاول جرّي للحديث في المسألة الأكثر خطورة: الطاولة!

ذكريات 2

ذاتَ يوم كان رشيد النِّمر هنا..

قبل سنين طويلة..

في المكان نفسه، شابًّا مثل عصفور يتقافز برشاقة في قفص! لقد كان لها الفضل الأول والأخير في أن يكون هنا، وحين رحلتْ بقي المكان له!

كانت جميلة تمامًا. بيضاء كما يشتهيها فلاح أسمر! وذات عينين خضراوين، جعلت أصدقاءه في الدّراسة يفكّرون جديًّا بالتخلّص منه! لكنهم لم يجرؤوا؛ أما الذي استطاع تجاوز هذا الخوف فكان، كالعادة، رجل أَمْنٍ يحلم بالزّواج بفتاة مثلها. فاجأه في السّهل الأخضر ذات ربيع خلْف مباني (المعهد) وصوَّبَ مسدسَه إلى رأسه.

الحقيقة أنه لم يَخَفْ، أو لعلّه لم يستوعب ما يدور فلم يخف. أمّا صديقته فقد بكتْ كثيرًا، ثم انسحبتْ، كما لو أنها قررتْ في النهاية ألّا تكون شاهد على جريمة بهذا المستوى!

لكن رجل الأمن لم يُطلق عليه النار (كما هو واضح!) وإلّا لما كان وصل إلى زمن يكون لديه فيه زوجة ميتة في السّرير، وأولاد يحلمون بكلب، بدل عصفور عجيب في قفص، ووظيفة مُرْبِكَة.

كان أول ما فعلتْهُ ذلك اليوم تفقُّدَ رأسِه ما إن رأته مُقبلًا.

بلهفة راحتْ عيناها تبحثان عن خيط دم، لم تجد. دارتْ حوله دورتين. لم يكن ثمة شيء فيه يمكن القول بأنه قد تغيّر.

وفجأة مدّتْ يدها إلى رأسه، في حركة جريئة، تبحث عن ثُقْب.

لم تجد أيضًا..

عندما اطمأنت، ابتعدت ثلاث خطوات، وقد تذكَّرتْ مسافة الأمان التي لا بدُ منها لئلا تثير الشُّبهات.

بعد أيام استوعبَ ما حدث، فأحسَّ بأنها بيضاء أكثر مما يجب! وعينيها أكثر خضرة مما يجب! وأنها ممتلئة أكثر مما يجب! لكن ذلك لم يمنع صاحبه الوحيد من الوقوع في حبِّها!!

لكنّ صاحبه كان مؤدبًا دائما، بحيث لم يضطرّها أن تقول لرشيد ما قالته هيفاء وهبي بعد ذلك بثلاثين عامًا تقريبًا، مخاطبة حبيبها (رجب) في تلك الأغنية الشهيرة:

رجب حوش صاحبك عنّي!

* * *

قالت له: سأراك الخميس.

ارتبكَ. كانت المرّة الأولى التي يراها فيها بعيدًا عن أسوار المعهد.

وحين قال لها مرتبكا أين: قالت له في (الدبلومات).

كان على وشك أن يسألها: مَن مات؟!

لكنها رأت حَيْرَتَهُ فأوضحتْ: إنه شبه مقهى. وحدّدتْ له موقعه.

لا يذكر رشيد النِّمر الآن، إن كانت انتظرته خارج المكان المحدّد أم داخله، فقد وصل إلى هناك مضطربًا تمامًا، لا يعرف إن كان ما في جيبه يكفي لدعوتها لتناول كوب عصير أم لا.

(دائما كان متعاطفًا مع أولئك الرّجال البؤساء الذين تُطوِّح بهم الأذرعُ الغليظة لحراس المطاعم والبارات، في الهواء، قبل أن يسمع جمهور السينما تهشُّمَ عظامهم على الرّصيف!!)

كان يتفلّتُ داخل القفص، كما يتفلّتُ عصفورٌ فَقَدَ أعصابه.

وحين خرجا معًا بسلام

سألته: هل تحسُّ بدوارٍ ما؟

- لا.

- بفرحٍ غير عاديّ؟!

- لا.

- بخطاك، التي قد تكون، أصبحتْ ثقيلةً بعض الشيء؟!!

- لا.

- بشيء من النّعاس؟

التفتَ نحوها قاطعًا سيل أسئلتها الغريبة بشجاعة رجل لامستْ فوهة مسدّس فرْوَةَ رأسه من أجلها: كيف ونحنُ في عزّ الظهر؟!!

* * *

في قاعة سينما (الرينبو)، مالتْ إليه أكثر من مرّة وافتعلتْ ملامسات شبه بريئة بين فخذيهما المتقاربين. لكنّ عينيه كانتا تدوران في الظّلام باحثتين عن عامل السينما الذي لا يُفارق (الكشّاف) يده.

وحسنًا أنه لم يفعل شيئًا.

كيف يمكن أن يفعل شيئًا وهو يحسّ بنفسه محاصرًا بالظّلام من جميع الجهات، لولا وجه صاحبته الأبيض الذي كان، لا بدَّ، مَصدرًا من مصادر الإضاءة في تلك العتمة!

وفكَّر: لو أنها سمراء، لكان الأمرُ أسهل!!

لم يفاجئه عامل السينما بعين الكشاف، ربما لأن الحائط كان خلْفَهما،

والسينما أمامهما!

حاولتْ مرّة أخرى. لكنها يئستْ. وعندها قالت تلك الجملة الغريبة: إذا لـ
يحركَكَ (الجنُّ) فكيف يمكن أن يحركك الإنس؟!!!

فبدتْ له غامضةً على نحو غير مُستَحَبٍّ..

حين رأته بعد ذلك، اعترفتْ له بأنها طلبتْ من النّادل أن يضع له شيئًا مز
(الجنِّ) في الكأس، لعله يتلحلح قليلا..

لكن (الجن) لم يفعل فِعْلَه، ليفعل هو فِعله أو بعض فِعله!

وبعد عقدين من الزّمان اتصلتْ وقالت له: إنها لم تزل تحلم به، لكنها سعيدة
مع زوجها رغم أنهما لم يُرزقا أولادًا.

سألها: من أين تتصلين؟!

فأجابت: مِن مصلحتكَ ألّا تعرف!!

وبعد مكالمة مطوّلة، أكدتْ له - حين أبدى بعض مخاوفه، وقد تذكّر المسدّس
وفوهته- أن الأمور مسيطر عليها، لأن زوجها نائم!

كان يريد أن يسألها: ومن تزوجتِ أخيرًا؟ لكن فطنته أسعفته فسألها: وهل
ما زال يحتفظ بالمسدس؟!!

فردّتْ: أوه، لا تذكّرني، هنا السِّلاح يباع كالخِيار عندكم، إنني أحدِّثك
وحولي خمس قِطَعٍ على الأقلّ!

صمتٌ

وفي غفلة منه فاجأته بتلك العبارة الصاعقة: أتعرف لقد فعلنا كلَّ شيء
مهمّ!! لكننا لم نفعل الشيء الأهمّ الذي يمكن أن نفعله الآن، أقصد في أقرب

فرصة.

- وما هو؟ سألها وهو غير قادر على تذكُّر أيّ شيء.

- ممارسة حبنا!!

صمتَ كثيرًا، إلى أن تنبّه أنها راحت تردّد اسمه بفزع، مرّة مرّتين، عشرات المرّات؛ وقد داهمها شعور بأنه أصيب بنوبة قلبية. وفي النهاية جاءها صوت غريب، لم يكن صوته ويشبه صوته:

- الآن؟! و(لكنّه) مات!

- أكيد مات؟!! أكيد؟!! الحق عليك. لطالما حاولتُ. لقد بذلتُ كل ما لديَّ من جهد؛ بل واستعنتُ بالجِنِّ أيضًا دون فائدة! أتذكُر؟!! كان عليك أن تعترف لي بأنه ميت منذ تلك الأيام. كان عليك أن تعترف!

ودوّى صوت ارتطام السمّاعة بشيء ما يشبه الحائط. وسَمَعَ قرقعة سلاح وصوتَ رجلٍ على الطرف الآخر يصيح: مَنْ هناك؟!!

هواجس دفينة

صاحبه نفسه فكَّر بقتْله.

وليس يدري، حتى الآن، إن كان نَدِمَ على عدم تنفيذ ذلك أم لا. فالأمر شائك جدًا، حين يتعلَّق بالقتل، كما قال له ذات حوار ساخن بينهما.

وإذا ما أردنا الذهابَ إلى أعماق صاحبه أكثر فإننا سنكتشف أنه فكَّر بمسألة القتْل هذه مرّتين.

فحين وقعتْ الفتاة البيضاءُ ذات العينين الخضراوين في حبِّ رشيد النِّمر ووقع في حبها، ذهب رشيد من فوره لصاحبه، وضع رأسه على كتفه، ودون أن يقول أيّ كلمة أدركَ صاحبه أن الأمر خطير:

- أعرف.. لقد وقعتَ في الحبّ!

- أجل! وكيف عرفت؟!

- لا يحتاج الأمر إلى ذكاء، ألم تقل لكَ أمُّكَ ذات يوم بأن الحبَّ والحَبَل لا يمكن إخفاؤهما؟

- قالت.

- ولكنك نسيت!! قال له صاحبه ذلك وكأنه يوبِّخه. ثم سأله: ومَنْ هي؟!

- لن أقول لك مَنْ هي الآن.. سأدعكَ تراها!

وحينما رآها صاحبه لم يُصَدِّق. إنها فتاة بيضاء وذات عينين خضراوين وممتلئة على نحو مثالي.

بعد أن قدّمه إليها مباشرة، وأتيح له أن يسمع صوتها، خطرتْ له تلك الفكرة المجنونة: (أن يقتله الآن، وفورًا، قبل أن تتولَّه هذه الفتاة النادرة في حبّه وتتعلّق به أكثر).

لكن دخول مجموعة كبيرة من زملاء الدّراسة على الخطّ، أفسد الخطّة، إذ بات رشيد النِّمر مُحاطًا بلفيف من الأصدقاء المفاجئين الذين راحوا يتقرّبون إليه أكثر فأكثر، وكلّ منهم يحلم بأن يُقدِّمه للفتاة الجميلة البيضاء.

من الصعب تنفيذ خطة قَتْل في ظلّ وجود هذه (الحراسات) كلّها!

هكذا كان صاحبه يسمّيها.

وما لبثت الحراسات أن عُزِّزتْ بعدد لا بأس به من عيون الصَّبايا الزميلات اللواتي اكتشفن فجأة وجود رشيد النِّمر ما إن وقعتْ الفتاة البيضاء في حبّه، وقد خطر لأكثر من واحدة منهنّ فكرة قَتْل هذه البيضاء التي سرقتْ أجمل الشّباب!

قال له صاحبه ذات يوم: أترى الصبايا وقد وقعنَ كلهنَّ في حبكَ فجأة.

- أين كنَّ من قبل، حين كنت بحاجة لأقلّهُنَّ جمالًا؟!!

ولم يكن صاحبه يريد من كلامه سوى شيء واحد بالطبع: (أن يُوقِعَهُ في حبِّ هذا السّرب الخفّاق من الفتيات بحيث ينسى تلك الفتاة البيضاء).

لقد أدهشه دائمًا أن علاقته بزملائه استمرّتْ حتى بعد التخرّج، بل ودخل إليها أصدقاءُ أصدقائه.

(ارتبكتْ العلاقة قليلًا بتناثر بعضهم، بعد حادثة رجل الأمن والمسدس!)

لكنه عندما عاد من سفره لم يجد أحدًا منهم في انتظاره.

(لقد عرفوا بأمر زواجها قبل أن يعلم هو.)

* * *

أما المفاجأة الكبيرة بالنسبة إليه، فهي أن صاحبه لم يتخلَّ عنه، وحينما تزوّج قويتْ علاقته به أكثر، وشجَّعه على الزّواج بأن أهداه غسالة كهربائية

فاخرة، حالمًا بأن يُلاحظ الفرق الهائل بين غسيل أمّه -التي تستخدم يديها- وغسيل زوجته ناصع البياض الذي لا يفوقه غسيل.

أما الذي لم يكن يعرفه رشيد، فهو أن صاحبه كان ينتظر عودة الفتاة البيضاء لحبيبها القديم في أيّ لحظة ليمدَّ لها يد العون، حين تكتشف أن حبيبها خانها وتزوّج؛ فيتزوجها هو؛ وسترضى، لأنها ستجدُ فيه دائمًا بعض رائحةٍ تُذكِّرها برشيد.

.. بمجرد أن عَلِمَ صاحبه أن الفتاة البيضاء عادت تتّصل، بدأت أمارات الحياة تعود إلى ملامحه؛ بل بدا في لحظات كثيرة أنه لم يسبق له أن فارق الحياة!!

أنه لم يمت.

.....

وعندما عَلِمَ بأنه رفض عرْضَها بالقدوم إلى هنا، في محاولة أخيرة منها لملء بعض (فراغات) حبّهما القديم! عادتْ له الفكرة القديمة من جديد: (أن يقتله).

لكنه اعترف أخيرًا بأن الوضع أصعب مما يتصوّر. وإذا كان عاقلًا وعمليًّا فإن عليه ألّا يخسر كلَّ شيء دفعة واحدةً، بمعنى: (أن يُبْقي على حياة صديقه، وليس له أحد غيره، إلى أن تعود الفتاة البيضاء، وبمجرد أن يعرف بأن قدَمَها وطأتْ أرض المطار، سيتسلل إليه... ويقتله).

السر الذي في بئر

(عتمة لا يبدد الضوء الجانبي إلّا قليلها)

- ألم تقل لي إنكَ تريد صعود الطّاولة. سألتْهُ بعد ذلك بأيام.

- نعم. قلتُ لكِ؟

- وهل صعدْتَها؟

- لا.

وأحسّ للمرّة الأولى بوخز في ضميره، بعد أن تأكّد له أنها مهتمّةٌ بما يقوا لها، وفكَّر: كان قتْلُها خطأ ما كان عليَّ الوقوع فيه!

بعد يومين من عذاب حقيقي لا يرحم، همس لنفسه: ولكن هل يكون موتها السَّببَ في أنها بدأتْ تهتم؟!

استعاد لحظات كثيرة من حياته، حين كانا على قيد الحياة، فلم يتذكَّر واقعة واحدة تشير إلى أنها كانت مَعنيَّةً بما يدور فيه.

رفع طرف لحافه ودعاها لأن تنضمَّ إليه (لم يفعل ذلك منذ زمن طويل). استدارتْ نحوه (لم يسبق لها أيضًا أن فعلتْ ذلك منذ زمن طويل) وهمست بعينين مغمضتين: دعني أستمتع هنا في مكاني بهذا الكسل الجميل!!

أنزل طرفَ لحافه، لعن طيبته، وقررَ ألّا يدْعوها ثانية ما داما تحت سقف واحد!

.. بعد مرور ساعات لا غير، أصبح على يقين من أنَّ إقدامه على قتْلِها كان أفضل هديّة قدَّمها لنفسه، ولها ربما؛ ما دامتْ مستمتعة إلى هذا الحد.

حين تأكّد له أنها نامت.. نام..

بعد قليل وصلتْ صاحبتُه: جميلة إلى حدٍّ لا يُحْتَمَل، كما رآها في ذلك اليوم الربيعيّ أول مرّة. أبعدتْ طرف اللحاف واندسَّتْ إلى جانبه، وهكذا غدا في المنتصف. زوجته على يمينه وصاحبته على شماله. خاف، بحيث أوشك أن يفتح عينيه ليتأكّد من أن زوجته لم تزل ميتة، لكنه لم يفعل، وسيُقَدِّرُ دائمًا لنفسه هذه الشجاعة، سيُقَدِّرُ لنفسه أنه لم يَحْرِمْ نفسَه من أجملَ ليلة في العمر.

لم يحدث الكثير، ربما لأن الخوف ظلَّ مُخيِّما على السّرير. كانت الملامسات الحارّة جدًا تبعث في روحه سعادة لا يمكن وصْفها، لكنه لم يتوغّل أكثر مما يجب، بحيث يعملُ على سَدِّ كل تلك الفراغات التي بقيت ندوبًا سوداء في حكاية حبّه الوحيدة الكبيرة!

بين حين وآخر، كان يتركُ لصاحبته ظهْره، لا لشيء، إلّا ليطمئنَّ أكثر من أن زوجته لم تزل نائمة تمامًا ككلِّ الميّتين. لكنه وهو يفعل ذلك، لم يكن يفتح عينيه. كان يراها بعين ثالثة لم يعرف من قبل أنه يملكُ واحدةً مثلها.

ولم تكن صاحبته تُضَيِّعُ الوقت. كان ظهره يعني الكثير لها، وكذلك لرشيد النِّمر الذي وجد في ظهْره مساحةً عظيمة مُهْمَلةً كانت بحاجة إلى مُكْتَشِفَة عظيمة قادرة على منْحه كلَّ هذا الحبّ.

كسلًا وتوتّرًا، عسلًا ومِلْحًا كانت أطرافه تفيض في آن، وحين استدار وجدها طيبة كليلة مُقمرة، أخذتْ نَفَسًا عميقًا كان أشبه بتنهيدة امتلاءٍ، وراحتْ تتكوَّر ما بين رقبته وركبتيه، لكنها لم تكن تهدأ، كانت تتموَّج بهدوء غير عادي، تتموّج كلّها، بحيث لا تنسى المرورَ بشغفٍ فوق وعبر كلِّ خليّة من خلاياه، وتصعد بصمتٍ مجنون إلى ذُرْوة روحه.

أمّا رشيد النِّمر، فلم يكن قادرًا على نسيان العينين المغمضتين خلفه، كان

حَذِرًا، بحيث لا يَصْدُرُ عنه، أيّ صوتٍ يُعيد زوجته للحياة فجأة. ولكنه كا مُسْتَسْلِمًا في أعماقه لضرورات الفضيحة إن حصلتْ، مثل كلِّ الرجال الذين لا يستطيعون خيانة زوجاتهم إلّا في الحلم، وعلى بُعْدِ ذراع منهنَّ. وهكذا ظل يتقلَّب في عذابه العَذْبُ.

نام..

كان ريش العصفور في المخدّة أكثر نعومة..

وفي اللحاف والفرْشة أكثر دفئًا..

نام بذلك الهدوء الغريب الذي لم يسبق له أن أحسَّ به منذ ذلك الفجر الذي قطعَ فيه رأس العصفور.. والصباح الذي التهمَهُ فيه الصَّقر.

نام نوم قتيل..

سعيدًا، بحيث يمكن أن يتواطأ مع امرأته لتقتُلَه مرّة أخرى أثناء نومه دون أن يحسّ بأيّ ضغينة تجاهها!

* * *

بمجرد أن أشرقتْ الشمسُ استيقظ مذعورًا.

امتدّت يده اليسرى مذعورة تتلمس السّرير..

لم تكن صاحبته هناك..

أخذ نَفَسًا عميقًا ويشبه الحسرة في آن..

راح يتفقّدُ نفْسَه..

ما يمكن أن تتركه امرأة جميلة فوق المخدّة من سحر أو بضع شعرات للذّكرى!

كان وحده..

امرأته إلى جانبه مندفعة في وصْلَةَ شخيرها الصّباحية بهمة ونشاط، والشمس قد أشرقت تمامًا..

تطايرتْ أفراحُه.

تذكّر أن أمامه الكثير من الأمور التي عليه أن يفعلها. ولم يكن هنالك ما يفوقها أهمية أكثر من اعتلائه السَّطح.

لكنَّ ما كان يحيّره، أن أمرًا كهذا لن يبقّى سرًا!!

فهناك مخفر الشرطة، ومركز الدفاع المدني، وهناك، أبعد، تلكَ الشّقق الفارغة المعروضة للإيجار منذ سنوات دون جدوى..

وفكَّر بستائرها المسْدَلة دائمًا وبنوافذها العمياء التي لا يُطلُّ منها أحد.

* * *

حين وصل حافّة السّطح سمع تلك الدّقات القويّة على باب المركز.

بسرعة هبط فزعًا، جرَّ الطاولة للداخل، الكرسيَّ، وهرع للباب الخارجي.

أشرعه، وهناك، وجد نفسه مع أحد المصوّرين الصحفيين وجهًا لوجه.

نظر إلى الكاميرا التي في يده، فأدرك أنه لم ير مثلها من قبل: طويلة ولها أكثر من عدسة وتشبه أقفاص الصّيادين.

كان المصوِّر بطولِهِ تقريبًا.

ألقى السّلام بأدب جم، (أسعده هذا)، ثم طلب منه أن يلتقط بعض الصوّر للمنطقة.

رحَّبَ به، دعاه للدّخول، ولم يكن في أيّ يوم من الأيام أكثر اطمئنانًا.

(لقد فَعَلَ فيه الأدبُ ما لم يفْعله فيه الجمال!)

مضى بمفرده نحو الغرفة، جرَّ الطاولة إلى منتصف السّاحة، وضع البوصلة، حدَّدَ موقع الضِّلع الذي تتوسّطه الدائرة الحمراء.

سأله المصور: ماذا تفعل؟!

- أقوم بما عليّ، لتقوم بما عليكَ على أفضل وجه!

- ماذا تعني؟!

- أُسهِّل مهمَّتَكَ. ولكن قلْ لي: هل تُقَدَّمُ لكم الطاولات في كلِّ مكان تذهبون للتصوير فيه؟!

- لا.

- نحن في خدمتك!

صعد المصوِّر إلى سطح الطاولة، نزع غطاء العدسة الطويلة، (مُبْقيًا على أغطية بقية العدسات)، نظر رشيد إليها، كانت لامعة نظيفة. صوّبها المصوِّر للشرق، التقطَ مجموعة من الصّور، للشمال، للجنوب، وحين استدار للغرب جاءته إشارة التّحذير واضحة: هذا ممنوع!

- ما الذي تعنيه بكلمة ممنوع؟! قال المصوِّر ذلك وقد أنزل عين الكاميرا إلى الأسفل، وهو يواصل تحديقه في اتجاه الغرب.

- للأسف التّصوير بهذا الاتجاه ممنوع!

- ولكنني لا أرى شيئًا!

- أعرف، ولكن ذلك ممنوع!

- تعرف إذن!! ها أنت تقولها بنفسك، تعرف أن لا شيء هناك، ولكنك تمنعني من أن أصوِّر!

- أمنعك لأن هذا ممنوع، لا لأنني أعرف ما الذي هناك!

لم يمض وقت طويل قبل أن يفقد المصوِّر أعصابه ويأخذ بالصّياح: سأصوِّر يعني سأصوّر، ولا أحدَ يستطيع أن يمنعني!

- أنا أستطيع أن أمنعكَ! جاء الصوتُ حازمًا. وحين التفتَ الاثنان إل مصدره، تبيّن أن قائله هو ذلك الشرطي الذي زاره في البيت، وتبعه هو فـ الشارع، وجاءه في الليل و...

- الحمد لله. لقد أتيتَ في وقتك. قال رشيد النِّمر.

- دائما أجيء في وقتي! ردَّ الشرطي بغضب.

- لقد أصرَّ على التقاط صور لهذا الاتجاه!

- الغرب؟!!

- نعم، هذا الاتجاه! رغم أنني حذَّرته وأوضحتُ له أن هذا ممنوع.

أخذ الشرطي نفسًا عميقًا، دار حول نفسه ثلاث دورات متتالية، مُحاولًا لَجـ غضبه على ما يبدو، وأمام هذا المشهد القويّ تذكّر رشيد النِّمر أنه رأى مشهدً مشابها في فيلم (النِّمر الرّابض والتنين المختبئ)، حيث ينتهي المشهد، أو يبدأ!! بانطلاق الممثلة الصّينية الحسناء إلى الأعلى في حركة لولبية تشبه دوّامة الهواء.

بأدب جمٍّ طلبَ الشّرطي من المصوّر أن يتبعه بعد توقُّفه عن الدّوران، فتبعه بهدوء أثار غيظ رشيد النِّمر؛ إلى ذلك الحدّ الذي شعر معه برغبته في أن يصرخ: ما دمتَ أرنبًا إلى هذا الحدّ فلماذا تستأسِدُ عليّ؟!

وحسنا أنه لم يبُحْ بما فكَّر فيه، وإلّا لكان الشرطيّ اعتبر ذلك تطاولًا فـ في حضرته.

لقاء في الممر

التقيا وجها لوجه في الممرّ حيث تفوح رائحة الدّهان.

ألقى رشيد النِّمر تحية الصّباح على الدكتور، لكن الدكتور تجاهله تمامًا، وواصل صعود الدّرج، تاركًا لرشيد النِّمر هبوطه؛ كما لو أن دوريهما في الحياة قد تحدّدا!

تسمّر رشيد في مكانه: هل بدرَ مني ما يزعجكَ أيها الجار؟!

عندها توقّف الدكتور. تسمّر في مكانه، إلى ذلك الحدّ الذي أحسَّ معه رشيد النِّمر أنّ الدكتور مات. صعد الدّرجات القليلة التي تفصلهما، واستدار حتى بات أمامه. حدّق في وجهه، لم يكن هنالك ما يشير، ولو من بعيد، أنه مات. لكن عينيه كانتا تُحدِّقان في مكان آخر، بعيد.

- هل بدَرَ مني ما يزعجك أيها الجار؟! هل نسيتَ أنني تبعتكَ حت غوانتنامو!

- لا، ولكن كان عليك أن تأخذ بنصيحتي المتعَلِّقة بالأقفاص. إلّا أنك ضيَّعت الفرصة. ضيَّعتَها تمامًا. ومن عادتي أن أستاء من الجار الذي لا يسمع الكلام، كما أستاء من الطّالب الذي لا يسمع الكلام، والابن الذي لا يسمع الكلام، مفهوم؟!!!

- ماذا تعني؟

- لقد بلغني عَبْر معارفي، وهم كثرٌ لحسن الحظّ، أنه سيتم سحبُ جمي الأقفاص القديمة، وسيجري طرْحُ جيل جديد.

- وما الجديد في الجيل الجديد؟!

- اقتربْ.

اقتربَ رشيد النِّمر مُغلقًا أنفه بسبابة وإبهام.

همس الدّكتور: إنها أقفاص لا تدخلها الشَّمس!

- لا تدخلها الشمس؟!!!

- اخفضْ صوتكَ. نعم. لا تدخلها الشّمس.

- وما الذي يؤرقكَ في هذا؟

- يؤرقني أنّ لديَّ فائضًا من الأقفاص القديمة التي يصعب تصريفها!

- لا أستطيع إلّا أن أحسَّ معك كجار، صدِّقني.

- إذا كنتَ تحسّ فعلًا! فيمكنك أن تشاركني في تجارة الأقفاص.

- الجديدة؟

- لا. القديمة!

صمتٌ

- ولكن ذلك غير منطقي.

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟

- لا شيء.

الزّعيم

أشرع الباب الزّجاجي للشرفة، فلاحظ لأول مرَّة بضع قطرات جافة من الدّم التي قد يكون فاته أن يزيلها منذ ذلك الليل، لكنه وجد نفسه مع المفاجأة الجديدة وجهًا لوجه.. كان ثمة عصفور بالحجم الطبيعي، عصفور صغير مثل ذلك الذي ذبحه، قبل أن يكبر، يتطلّع إليه بعينيه الصغيرتين ويرجوه شيئًا ما. تجمَّدَ في مكانه، وقد أغلق أذنيه وأغمض عينيه، منتظرًا انفجاره... لم ينفجر العصفور.

فتح عينيه بسرعة، رآه واقفًا لا يتزحزح. تراجع بخطى وجِلَة صامتة، ثم اندفع نحو المطبخ، بسرعة جنونية، ما إن أصبح جسده في الممر. أحضر السّكين الطويلة التي لم تُصنع لذبح عصفور بهذا الحجم، وهوى بنصلها اللامع نحو رقبته، فقفز رأسه بعيدًا عن جسده ثلاث خطوات على الأقل.

اعتدل، وهو غير مُصدّق أنه بات على هذه الدَّرجة من الاحتراف! شدّ قامته كعسكري يُمنح وسامًا؛ وفي الشرفات المقابلة أبصر عددًا لا يُحصى من الرّجال المشدودي القامات.

وحين تراجع خطوتين نحو عتمة الدّاخل. تراجعوا أيضًا.

أقفل باب الشرفة.

أقفلوا أبواب الشرفات!

أسدل الستارة.

أسدلوا الستائر!

أشرع الستارة وقد تذكَّر شيئًا لا يجوز تَرْكَهُ في الشرفة.

أشرعوا الستائر وقد تذكّروا أشياء لا يجوز تَرْكها في الشرفة!

فتح الباب.
فتحوا الأبواب!
انحنى ليتناول العصفور ورأسه، وعيناه تنظران إليهم.
انحنوا ليتناولوا العصافير ورؤوسها، وعيونهم تنظر إليه!
أمسك بالعصفور وألقاه خارج الشّرفة.
أمسكوا بالعصافير وألقوها خارج الشرفات!
سمع ارتطاما هائلًا لا يشير إلى أن الذي تمّ إلقاؤه مجرد عصفور.
سمعوا ارتطامات هائلة لا تشير إلى أن ما تمّ إلقاؤها مجرد عصافير!
سار إلى حافة الشرفة.
ساروا إلى حافة الشرفات!
حدّق في الشارع.
حدقوا في الشارع!
صرخ من جديد حين رأى جثة آدمية على الرّصيف تحت شرفته.
صرخوا من جديد حين رأوا جثثًا آدمية تحت شرفاتهم!
تمالك نفسه.
تمالكوا أنفسهم!
تراجع خطوتين.
تراجعوا خطوتين!
أغلق الستارة.
أغلقوا الستائر!
أشرع باب الشقّة ونزل الدّرجات بسرعة.

أشرعوا أبواب الشقق ونزلوا الدّرجات بسرعة!

توقّف على باب البناية.

توقفوا على أبواب البنايات!

نظر يمينًا، شمالا.

نظروا يمينا شمالا!

حدّق في عيونهم.

حدقوا في عينيه!

اندفع نحو الجثة.

اندفعوا نحو الجثث!

صرخ حين رأى الجثة تشبهه.

صرخوا حين رأوا الجثث تشبههم!

انحنى ووضعها على كتفه.

انحنوا ووضعوها على أكتافهم!

استدار عائدًا لباب البناية.

استداروا عائدين لأبواب البنايات!

اختفى في الممر.

اختفوا في الممرات!

صعد الدّرج.

صعدوا الأدراج!

بعد لحظات أحسّ بأنه خفيف.

بعد لحظات أحسّوا بأنهم خفيفون!

امتدّتْ يده نحو كتفه الذي تتدلّى منه الجثة.
امتدّتْ أيديهم نحو أكتافهم التي تتدلّى منها الجثث!
لم يجد شيئًا هناك.
لم يجدوا شيئًا هناك!
التفتَ محاولًا التأكُّد مما حدث.
التفتوا محاولين التأكّد مما حدث!
وفجأة..
هبطت العتمة..
فلم يعد هناك سوى وقْع الخطى العمياء التي تتحسَّس الأدراجَ صاعدةً!

السطح

فكَّر رشيد النِّمر، فوجد أن أفضلَ ما يمكن أن يقوم به الآن هو أن يضرب الحديد وهو حام.

الإحساس بأنه تحوّل إلى زعيم بثَّ بين جنبيه قوّة غير عادية.

انسلَّ من فراشه، ولم يكن مطمئنًا سوى لشيء واحد: زوجته لن تستيقظ.

مدّ يده ليتناول ملابسه المُعَلَّقة خلفَ الباب بهدوء، فأصدر الباب ذلك الصرير المزعج. تسمَّر في مكانه من باب الحيطة والحذَر..

(حتى الأموات لا تعرف أبدًا متى سينهضون!)

انحنى وتناول حذاءه، وما بين الحمّام وباب الشرفة، خلع منامته، وارتدى تلك الملابس القاتمة التي جهّزها قبل النوم، خصيصًا لهذه المناسبة المهمّة.

لم يكن باب الشقة يُصدر صريرًا مثل ذاك الذي تصدره أبواب غرف النوم. لقد حفيَ لسانُها، زوجته، وهي تطلب منه أن يُزِّيتَ مفاصل هذه الأبواب دون جدوى، وحين اطمأنّ بأنهم ماتوا، بل وشبعوا موتًا، اكتفى بتزييت باب غرفة ابنته، متناسيًا بقية الأبواب.

* * *

لم يكن مركز عمله قريبًا، كان عليه أن يُغيِّر الحافلة مرّتين قبل الوصول إليه. لكن ذلك لم يكن يزعجه أبدًا، إذ كان نوعًا من أنوع التغيير التي تُضفي بعض المذاق على صباحه وما بعد عصره!

يتأمّل الوجوه، وهو ينقر برأس مظلته أرضية الحافلة، ويبدأ لعبته اليومية مُقدِّرًا أعمار البشر. وفي النهاية يصل إلى تلك النتيجة: صحيح أن أعمارهم متفاوتة إلى حدٍّ بعيد، إلّا أن الواقع يقول إنهم ماتوا في اليوم نفسه.

وهكذا كانوا بالنسبة إليه لا يمتّون بِصِلَة إلى أولئك الموتى الذين يشاهدهم بالجملة، منذ زمن طويل، في القنوات الفضائية:



بدءا بـ (الجزيرة) مرورا بـ (العربية) ووصولا إلى (الفضائية الفلسطينية) التي ينظر إليها دائما بحزن بالغ.. فها هي تمتلك موقعَ جناح في الفضاء، دون أن تتمكّن من امتلاك موطئ قدم آمنٍ على الأرض!

* * *

صاح به السائق: أتريدُ العودة أم النُّزول هنا؟!

تلفّتَ حوله،

لم يكن هناك سوى السائق؛ ومن حُسْن حظ رشيد النِّمر أنه يترجّل دائمًا في المحطة الأخيرة.

هبط.

الفجر شاحب، الشمس لم تزل خلف سلسلة الجبال الشرقية العالية.

كان الموقع كلّه أشبه بحفرة عملاقة خلَّفَها نيزكٌ رهيب أصاب الأرض منذ ملايين السنين: (الجبال من كل جانب؛ وكما تشرق الشمس متأخرة عن موعدها

في قرى وبلدات ومدن أُخر فإنها، تغيب قبل موعدها الذي تغيب فيه عن قرى وبلدات ومدن أُخر).

لقد تحيَّن طقسًا صافيًا في شتاء بدا أطول من المعتاد، تتبَّعَ النشرا الجوية في غير محطة أرضية وفضائية، إلى أن اطمأنَّ أن ثمة إجماعًا على أن الأيام التالية مشمسة.

وصل المركز، وبيده كيس بلاستكيّ أسود يضمُّ قميصًا وبنطالًا باليين وكان قد اشترى في اليوم السابق أربعة كيلوغرامات من الإسمنت، بعد أن قَدَّمتْ له تلك القطراتُ القليلة التي تسرَّبتْ من السّقف الذّريعة الكاملة لصعو السَّطح.

توجّه إلى كيس الإسمنت، وهالَهُ أن كمية، يمكن أن تصل إلى النصف، قد اختفت!!

وقبل أن يُعدِّل قامته، جاءه الصوتُ: أرحناك من هذه المهمّة!!

التفتَ بسرعة، إلى ذلك الحدّ الذي أوشك أنفه أن يرتطم بأنف الشّرطي.

- أصلحناه!

- وكيف عرفتم بأن السّطح كان بحاجة للصيانة؟!

- لأنك اشتريتَ الإسمنت. لا أحد يشتري الإسمنت إلا ليُصْلح جدارًا ما، سطحًا ما، أرضيةً ما. أليس كذلك؟!

- أجل.

- أم أنك اشتريته لتسُدَّ أذنيك؟!

- معاذ الله!!

- إنها المرّة الأخيرة التي يمكن أن تأخذ فيها قرارًا مثل هذا على عاتقك.

إنني أحذِّركَ!

- حاضر.

- أتعرف ما الذي غفر لك هذه الحماقة؟!

- لا.

- الذي غفر لك هذه الحماقة هو معرفتنا بأنك كنتَ الأكثر حزمًا مع العصفور!!

* * *

بعد أيام وجد أن أفضل طريقة لمعرفة ما في الغرب أن يعود ليتجوّل هناك على قدميه، ولم يكن في الأمر ما يثير الشُّبهة، فهناك شوارع وبنايات، وأولاد يتصايحون وربّات بيوت يتبادلن الأحاديث وباعة متجولون وو وو وو وو......

تجوَّل.

لم يجد شيئًا.

لكنه في طريق عودته صادف الرّجل العجوز، الرجل العجوز الذي تجاهله عمدًا.

تبع رشيد النِّمر الرجلَ العجوز، وبصعوبة استطاع اللحاق به. كان يائسًا فهو يعرف أنه لن يعترف له بشيء؛ وربما هو نفسه لا يعرف شيئًا. لكنّه قرر استخدام تلك الطَّلقة الأخيرة التي بقيتْ في جعبته.

حثّ خطاه ما استطاع إلى أن تجاوز الرجل العجوز واستدار فجأة معترضًا طريقه.

عمَّ الصّمتُ وقد التقتْ العيون.

- لا أريد أن أسألَك سوى سؤال واحد.

- تفضّل.

- متى بدأتَ العمل في المركز؟!

- ها قد سألتَ السؤال!!! هل تسمح لي بمواصلة طريقي إذن؟!

- لكنك لم تُجبني!

- لأنك لم تطلب إجابة، بل طلبتَ السّماح بأن توجِّه لي سؤالا!

- أعتذر، هل بإمكانكَ أن تجيبني؟

تلفَّتَ الرجل العجوز حوله، لم يكن خائفًا، وهذا ما طمأن رشيد النِّمر.

- بعد حرب الخليج الأولى بقليل! بعد الحرب الأولى!!

- ومتى صدر قرار منع التصوير؟!

- لقد طلبتَ إجابة وها أنت تريد اثنتين!! أخذ نفَسًا عميقًا وأجاب: بعد حرب الخليج الثانية!

- ألم يصدُر أيّ قرار آخر يُلغي القرارَ الأول؟

- ها أنت تريد إجابة ثالثة. هل تلاحظ؟! ولكن لا بأس، سأعتبرها الأخيرة. ليسَ في عهدي. هل صدَرَ في عهدكَ قرارٌ من هذا النوع؟!

- لا. وهذا ما يحيّرني! ولكن ما الذي يوجَد هناك، ولا يُسْمَح لأحد بتصويره؟!

- ها أنت تطلب إجابة رابعة. سأعتبرها ما بعد الأخيرة!!

- أرجوك.

- لقد بحثتُ بنفسي، قال الرجل العجوز، اشتريتُ بوصلة، صعدتُ الطاولة واشتريتُ أربعة كيلوغرامات من الإسمنت بحُجَّة إجراء صيانة للسّطح، وفاجأني الشرطي بأنهم أصلحوه وحذَّرني من تكرار الأمر دون العودة إليهم،

وتجولّتُ كثيرًا في هذا المكان الذي أحادثك فيه الآن، ولم أر شيئًا.

كان يدركُ أنه لن يحتمل أيَّ سؤال آخر، فقد باتَ يتحدّث وكأن صبره قد نفد. لكن المفاجأة التي حدَثَتْ أن الرجل العجوز مال نحو أذنه وهمس: إذا أخبرتك، هل تعدني بأنك لن تعترض طريقي بعد اليوم؟!

- أعدك.

- حاول إذن أن تتذكر نهاية حُلْمكَ!!

- أيّ حلم؟!!

- الذي ظهرتْ يداك في نهايته.

- وكيف عرفتَ؟

- هل تتذكر الكاميرا التي دارت نصف دوْرَة وصعدتْ للسّطوح؟!

- ...

- هل تتذّكر المشهد الأخير؟!

- ...

- منذ ذلك اليوم لم يعد يُسْمَحُ لأيّ كاميرا أن تصعد للسّطح.. هل فهمت؟!

مدَّ الرجل العجوز يديه، وقد حشر مظلَّته المورّدة تحتَ إبطه الأيسر، فارتطم طرفها بمظلّة رشيد النِّمر، وهمس: ألم تلاحظ بعد بأنهما يشبهان يديك؟!!

حدّق رشيد النّمر في اليدين الهرمتين بعينين فزعتين، وعند ذلك وجد قامته تبتعد من تلقاء نفسها مُفسحةً للرجل العجوز الطريق..

في حين تسمّر رشيد النِّمر مكانه يتابعه بعينين بلا جفنين؛ وشبه غائب عن الوعي، ظلَّ يراقب مظلته وهي تموج في البعيد.. إلى أن اختفى.

العاصفة

قبل أن يصلَ الشارع الرّئيس، أدرك أن ثمة أمرًا غير طبيعي يحدثُ: كانت العربات تسير مسرعة وكأنها هاربة من شيء ما، ولشدَّ ما أثار انتباهه أن مسّاحات الزّجاج كانت تتحرَّك حركتها النصف دائرية المعروفة بأقصى سرعاتها؛ وقبل أن ينظر إلى السماء فتح مظلَّته وبدا مستعدًّا تمامًا لأيّ مفاجأة.

لم يسمع صوت ارتطام أيّ نوع من القطرات بقماش المظلّة. وأحس أنه لا بد أن يكون مجنونًا بما يكفي، كي ينظر إلى السماء ويُفكِّر بالمطر في شهر لاهب كهذا.

- قد يكون النّدى؟!
- ولكن أيّ ندى أيضًا؟
- الرطوبة ربما؟!
- أي رطوبة؟

ثم فجأة، راح يُميّز ذلك الاختلاف العميق بين أصوات محركات السيارات والفرقعات، التي بدتْ مألوفة.

كان أشدّ رعبًا من أن يقطع الشارع في ظلِّ ذلك الاندفا ع المجنون للعربات، أشدّ رعبًا من المرّة الأولى، في ذلك الصباح التي سقطتْ فيه قطرةُ دم من السماء، وتلتْها أخرى، ورأى بأمِّ عينه كيف تحوَّل ريش العصفور إلى سحابة، ظلَّ يحسّ بأنها تسير معه، تظلّله، حتى وصوله إلى باب المركز الإعلامي.

لكن الأمر لا يمكن أن يستمرَّ إلى ما لانهاية.

عزم أمره على أن يقطع الشارع مهما كان الثمن. تحيَّن فرصة وجود ذلا

الفراغ بين سيارتين متتابعتين واندفع. وحين وصل إلى الجزيرة الصغيرة التي تفصل المسْرَبَين، تأكّد أن عُمْرًا جديدًا قد كُتب له. فقد أحسّ بالطريق زَلِقًا تحت نعليه، بحيث كان يمكن أن يجد نفسه بسهولة تحت عجلات هذه السيارات التي لا يمكن أن يكون التوقّف أمرًا ممكنًا لها مع هذا الاندفاع.

وعبرتْ رأسه فكرةٌ طائشة: ما الذي كان يمكن أن يحدث لأستاذ علم الاجتماع لو كان مكاني؟!

ابتسم.

ولعن نفسه.

- مَنْ يبتسم في موقف كهذا؟

حين رفع قدمه محاولًا التقدُّم خطوة للأمام، بعد التقاطه لأنفاسه، خُيِّل إليه أن حذاءه قد أصبح ثقيلًا.

نظر إليه. كان موحِلًا تمامًا.

وخيّل إليه أنه رأى ما يشبه الدّم.

عمَّ الصّمت، فبدت العرباتُ المندفعة حوله مثل كرات مجنونة متطايرة بلا صوت. وفي لحظات انعدام السمع هذه، التي أصبحتْ فيها أصواتُ محركات السيارات بعيدةً، بدأ يلتقط شيئًا من تلك الفرقعات التي كانت تتقافز بين أغصان الأشجار، كان الأمر أشبه ما يكون بفرقعات قويّة لحبات ذُرة عملاقة.

وانفجرتْ عاصفةٌ عكّرت المشهدَ أكثر.

تيبَّس مكانه ملتفًّا على نفسه، وإذ بات على يقين من أن العاصفة تراجعتْ، ارتفعتْ يداه نحو أذنيه، خضّهما بقوّة؛ نحو عينيه، فركهما بقوة أقل؛ وحين استعادهما، كانت أصابعه غارقة بذلك الأحمر اللزج.

حدّق في ملابسه، كانت مغطاة بالرّيش الملتصق بثيابه ببقع الدّم.

بصعوبة قطع الشارع من جديد، عائدًا. انعطفَ نحو شارع البناية الـ Dead End. صعد الدّرجات بسرعة نسيَ معها رائحة الدّهان اللاذعة المُنْذرة بعدم جفافه. وجد يده تلتصق بحديد الدَّرج. انتزعها بصعوبة، وواصل الصّعود.

تمنّى لو أن للبناية مصعدًا مثل بقية البنايات حوله، طرد الفكرة، ماذا لو صعد أحد الجيران معي وأنا على هذا الحال؛ على الأقل، لن يرى الكثير وأنا أجتازه مسرعًا فوق الدرجات.

أشرع الباب بسرعة، قطع الممرّ بسرعة، اتّجه للحمَّام؛ وقبل أن يدخل، خُيّل إليه أنه سمع غناء عصفور ما، على الشرفة، ولم تَخُنْه أذناه، فما ان نظر إلى هناك حتى رآه واقفًا على ذلك القضيب الحديديّ النابت من حافة الشّرفة.

زجَّ جسده داخل الحمَّام، في حين بقي رأسه في الخارج بعينيه المشرعتين اللتين راحتا تنتظران بفزع اللحظةَ التي سينفجر فيها العصفور، لكن ذلك لم يحدث، إذ فجأة طار مخلِّفًا صدى أغنيته متماوجًا على حافة الشرفة!

خط النهاية

مرَّ ليلان هادئان ونهاران..

قابعًا في العتمة كان..

حوله أولاده وزوجته، في حين وقفت ابنته تراقب المشهد من بعيد تنظر إليه، زامّة شفتيها، مخترِقَةً روحَه بعينها القويَّة تلك.

لم يكن ثمة ما يُنذر بالخطر..

كانت الشرفة خالية من الغناء تمامًا؛ هادئة مثل مقبرة للصقور لا تمرُّ بها العصافير، ولا يحطُّ على شواهدها الباسقة الحمَام.

لكن ذلك لم يدُم طويلًا..

فجأة سمعوا غناءً..

(أو هكذا خُيِّلَ إليهم!)

فتناثروا، إلّا ابنتُه، كما لو أن شخصًا فزِعًا صاح في قاعة للسينما (حريق).

تناثروا..

وقد وجدَ فيما بعد صعوبة كبيرة في العثور عليهم، رغم أن الشّقة لم تكن تنتمي للشّقق التي يمكن أن يضيع فيها أحد.

إلا أنه كان فَرِحًا بما حدث؛ إذ بقدراتهم الذاتية، وبعض المساعدة منه، استطاعوا أن يطوِّروا غريزة البقاء لديهم، وباتوا مثل كلِّ كائنات الله المحظوظة التي تستطيع الإحساس بالزَّلازل قبل وقوعها.

- ليتهم كانوا يملكون هذه الغريزة الغالية في حياتهم. قال لنفسه.

وتذكّر كارثة (تسونامي) التي لم يَمُتْ فيها حتى فيل واحد.

- أيّ نعمة عظيمة هذه، حين يكون المرء قريبًا من قلب الله مثل أي ذئب أو فيل!! أضاف.

حين لم يجدهم ذهب للشّرفة، متجاوزًا ابنته، حاملًا مظلّته المورّدة. فتح الباب بحذر خائفًا أن يباغته العصفور فينفجر أو يدخل البيت.

لم يبصر شيئًا.

خرج وتأمّل الشارع، فرأى الرّجال هناك في الشرفات، مظلاتهم في أيديهم، يتأمّلون الشارع ويعبّون كميات هائلة من الهواء، مثله. لكنه لم يكن متأكدًا من أن استهلاك مثل هذا القدر من الهواء أمرٌ محمودٌ أم مذموم! وحاول أن يتذكّر إنْ كان ثمة بيان رسمي صدَرَ بهذا الشأن؛ لم يتذكّر.

(أن يتأكد فذلك يعني أن تكون ممرات الهواء في صدره أكثر أمنًا!)

كانت فرصةً استثنائية له: إطالةُ الوقوف في الشرفة.

حيث الهواء بارد والشمس لم تصل، بعدُ، بسبب ارتفاع العمارات المقابلة.

وكما لو أن المدينة كلّها كانت تنتظر خطوته التالية، ظلَّ الرجال في شرفاتهم، ينتظرون الحركة التالية التي ستصدر عنه.

متأخرًا اكتشف انتظارهم هذا، عندما رفع رأسه إلى الأعلى، ورآهم يرفعون رؤوسهم إلى الأعلى. أنزل رأسه. أنزلوا رؤوسهم!

فتح مظلّته فتفتَّح وردُها.

فتحوا مظلاتهم فتفتّح وردُها!

أغلقها.

أغلقوها!

وهكذا، أدرك أن العين عليه، وأنه غدا مصدر الوحي لهؤلاء الرجال الذين

تحوّلوا إلى جيش عظيم له، دون أن يخطر بباله أن يكون في أي يوم من الأيام قائدًا في الكشافة!!

وتذكر قول الشاعر العربيّ القديم:

أتته الخلافةُ مُنقادَةً

إليه تُجَرْجِرُ أذيالها

وكان تائهًا في الحقيقة، أكثر منه سكران أو منتشيًا بهذا الذي تحقّق على حين غرَّة.

تراجع خطوة.

تراجعوا!

دخل إلى البيت..

لم يعد هنالك أحد في الشرفات!

* * *

بعد يومين ظهر أولاده، وظهرت زوجته. وبهدوء غير عاديٍّ أسرَّ لهم بأنه أصبح شخصًا آخر تمامًا، وأن منصبه الجديد قد يضطرّه إلى تَرْكِ عمله والتفرُّغ نهائيًا لأمور الشُّرفة!

بكوا، لأن ذلك يعني أنهم سيرونه أكثر. إلّا ابنته التي لم تغادر مكانه لحظة.

- أكان عليك أن تحلم؟! قالت له زوجته دون مقدِّمات.

تجاهل تعليقها.

- أكان عليكَ أن تصلَ إلى ذلك الحدِّ من الرّعونة بحيث تُفكِّر في اقتنا العصافير؟! ولكن ما فائدة الكلام الآن؟!!

تجاهل تعليقها.

قال لهم: أنا الآن أمام مشكلة جديدة، فما دمتُ قد أصبحتُ قائدًا، رغمًا عني، فإن مسؤوليتي تضاعفت.

- وهل كانت لكَ مسؤولية من قَبْل؟!

- نعم، وأنتم تعرفونها!

- أن تشتري العصافير وتُطْعِمها للصَّقر وتدعنا نتشهّى الدجاج لأسابيع طويلة. قالت امرأته، وأضافت بغضب: كلّ نقودنا أنفقتها في شراء العصافير وانظر الآن ما الذي يحدث!

- إنها تأتي وتغنّي في الشّرفة دون أن نستطيع حتى مشاهدتها. قال ابنه الصغير.

- إنها تغيظك، بل لعلّها تسخر منكَ! قالت زوجته.

وكما لو أن كلامها حمل العصفور من السّماء ووضعه في الشرفة، تصاعدَ الغناء بصورة مفاجئة وأكثر علوًّا.

حين أشرع باب الشرفة، أُشرعتْ أبواب الشرفات الأخرى.

ولكن، لا شيء.

في الليل أحسّ أنه بحاجة إلى عصفور جديد، عصفور له، حين يخرج للشرفة يجده هناك. عصفور يمرح فيها بلا قفص، عصفور... ويقْطع له عنقه.

حين استيقظ، أشرع الشرفة، فوجد العصفورَ الذي تمنّاه هناك. لكنّه أدرك أنه العصفور نفسه الذي ذبحه قبل يومين وألقاه من الشرفة.

لم يجرؤ على تكرار الأمر.

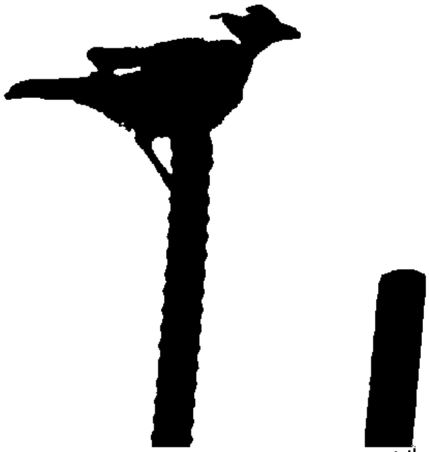
لم يطر العصفور، ظلَّ واقفا إلى أن أمسكه، ورأى في الجانب المقابل

المشهدَ يتكرّر.

أحضر خيطًا بلاستيكيًا رفيعًا لا لون له، كالماء الحقيقيّ! وربط العصفورَ من قدمه، وصرخ به صرخة أفزعته، مُنذرًا: إياك أن تُفكِّر بالغناء في هذه الشرفة، إياك!! وسمع الصّرخة تتردد.

لأسابيع طويلة هدأ كلُّ شيء، وخُيّل إليه أن المشكلة كانت في الأقفاص، فكتبَ بخطِّه الجميل هذه العبارة وألصقها بزجاج باب الشرفة:

ما دام العصفور في قفص فإنه سيغني
أما إذا كان مربوطا بخيط رفيع لا يكاد يُرى فإنه لن يفعلها
لم يعجبه هذا الاكتشاف،
ذكّره بشيء ما، يُحبُّ أن ينساه.
...
ذات صباح تغيّر الأمر فجأة: سمعوا غناء هائلًا لم يسمعوا مثله من قبل..
غناء جميلًا وصافيًا..
راح يركض للشرفة..
وفجأة وجدَ نفسه وجهًا لوجه مع عصفور جميل، وهكذا بقية الرجال:



كان الأمر هذه المرّة مُتعلِّقًا بعصفور واحد لا أكثر.

ولكنه حطَّ على شرفته هو، لا على شرفة سواه!

أدرك أن التحدّي كبير، وأن العيون تحدّق به تنتظر اللحظة التالية على أحرٍّ من الجمر. تراجع خطوات، وظلّ العصفور على الشرفة. في حين كان عصفوره المربوط في مكانه المعتاد، بدوره، ينتظر ما ستُسفر عنه اللحظات التالية. اختفى في الدّاخل، وحين عاد كانت السّكين في يده تلمع.

وكانت عيون الرجال تلمَع!



هوى بالنصل سريعًا، لكن العصفورَ كان أسرع. طار.

كانت الفضيحة أكبر من أن تُحتَمل، رأى نفسه كورقة تعبث بها ريح هوجاء في يوم مُغبرٍّ.

تراجع.

فتراجع الرجال!

وسرَّه أنهم فعلوا ذلك. هذا يعني أنهم ما زالوا يعتبرونه قائدهم.

كانت الفكرة الوحيدة التي خطرتْ له: أن زمن السّكاكين قد ولّى، ما دامت العصافير باتت تتجرأ فتهبط على حوافّ الشرفات وتغني!

- ما الذي يحدثُ لو مرَّ الشرطي من تحت الشّرفة ورأى عصفورًا طليقًا يغنّي على حافة شرفتي بالذات؟!!

شبه مجنون كان.

* * *

قبيل الظهيرة، عاد إلى البيت وفي يده ذلك الشيء الطويل الملفوف بعناية.

رأته زوجته، قالت: ها قد فعلتَها هذه المرّة دون أطلبَ منك ذلك. كنّا بحاجة لمكنسة فعلًا.

بدأ بتمزيق الأوراق؛ وعندما ظهرتْ البندقيةُ، تراجعتْ ثلاث خطوات نحو الجدار.

وجَّه البندقيةَ نحوها.

- هذه تضمن لي أن من يموت لا يمكن أن يعود للحياة من جديد!

- اِعقَل يا رجل!

- سأقتله، يعني سأقتله!

- ومن هو الذي ستقتله؟!

- العصفور.

- ليس أنا إذن؟!!

- لا، أنتِ سأقتلكِ لاحقًا بعدما أقتل العصفور. ثم إنني قتلتكِ أصلًا، ه

نسيتِ ذلك؟!

- لا. ولكنني لا أتذكّر!!

- لن أجادلكِ الآن. لقد أمضيتُ العمر وأنا أجادلكِ. أما الآن فإن عليَّ أن أُنهي هذه المشكلة.

* * *

كان الانتظار شاقًّا، لكن الصباح أطلّ. الطَّلْقةُ في بيت النار، وبندقية الصيد في يده ثابتة.

فجأة.. خُيّل إليه أنه يسمع أصوات عصافير، غير واضحة تمامًا. أشرع باب الشرفة بحذر شديد، وجدَ نفسه مع مجموعة من الأفراخ اللحميّة التي خرجتْ للتّو من البيض!

- لم يكن يأتي إلى هنا عبثًا ذلك العصفور اللعين!!

- لم يكن يأتي إلى هنا عبثًا ذلك العصفور اللعين!! ردّدت الأصواتُ الجملة نفسَها في بقية الشرفات!

وعندها قرر ألّا يغادر الشرفة.

حين أدركوا ما يدور، قرروا، معه، عدم مغادرة الشُّرفات.

جاءت امرأته، نظرتْ، فرأت الأفراخ الصغيرة.

تدفّق ينبوع أمومتها فجأة:

- حرام، إنها صغيرة جدًا. أنظر إنها (تُصَوْصِوْ)، هل تسمح لي بإرضاعها؟!!!

- ماذا؟

- بإرضاعها!!

- ومن أين أتتكِ هذه الفكرة العبقرية؟!
- من نفسي.
- بل من تلك الصَّحيفة التي تحدَّثتْ عن امرأة أرضعت جِراء الكلاب!
- ولماذا لا أفعل الأمر نفسه؟!
- لأن هذه العصافير لا أفواه لها بل مناقير!
- هذا أفضل!
- وهي ليست يتيمة!
- قل إنك لا تريدني أن أُرضِعها. قل ذلك وسينتهي الأمر!
- لا أريد أن ترضعيها.
- خلاص. انتهى الأمر!!
ابتعَدَتْ.
- أين كنّا؟! همس لنفسه.
تذكّر.
صوَّب بندقيته للسماء.
صوَّبوا بنادقهم!
جلس متحفِّزاً.
فاتخذوا الوضعيَّة ذاتها!
بعد الظهيرة بقليل بدأ هدير أصوات غريبة يقترب..
تحفّز.
تحفّزوا!
ولم يكن غرّاً إلى ذلك الحدّ بحيث يضلله صوت كهذا.

إنها أجنحة.

تحفّز أكثر.

فتحفّزوا!

ازداد الهدير ارتفاعًا، فبدأ الخوف يتسللُ إلى قلبه: ماذا لو جاءت الطيور وهاجمتنا مرّة واحدة، الطيور التي قتلناها والتي أكلناها والتي قيّدناها من أرجلها و..:

(تسونامي مجنون!)

وكما لو أن على القائد أن يرى ما لا يراه الآخرون دائمًا، أو على الأقل، أن يرى قبْلَهم. رأى في السّماء ذلك المشهد الرائع الذي لم يكن يتخيّل أنه سيعيش إلى اليوم الذي سيراه فيه.

ألقى البندقية جانبًا وراح يُصفِّق ويتقافز.

وفجأة، امتلأت الشّرفات بالبهجة نفسها.

كانت السماء مغطاة تمامًا برفوف أقفاص ملوَّنة لم يروا مثلها من قبل!! أقفاص طائرة راحتْ تحطّ على الشّرفات وسطوح البيوت وأرصفة الشوار وساحات المدارس وأكتاف المارة وحافلات النقل العام و.. حتى لم يعد هنالك أيّ مكان يتّسع لها.

وعلى شرفته حطّتْ عدّة أقفاص لا يخفى جمالُها!

- شو في؟! صاحت امرأتُه من الدّاخل. وحين لم يُجِب، نهضتْ وراحت تسير نحو الشرفة يتبعها أولادها. وعندما وقعتْ عيناها على المشهد صرختْ فقذف فمُها غيمة هائلة من الدُّخان الأسود، فرأى ذلك الاصفرار المريض لأسنانها الكبيرة المحاطة بلحم لثّتها المهترئ.

- هذا لي!! قالت وهي تُشير إلى قفص ضخم مُزيّن بطريقة فريدة.

- لا، إنه لي!! قال لها بحزم.

- بل لي، فأنتَ طوال عمرك كنتَ تحصل على أفضل الأقفاص!!

- بل لي!

وحانت منه التفاتةٌ إلى الشرفات المقابلة فرأى القيامة قائمة.

نظر إلى ابنته، كانت تحدِّق في عينيه مباشرة؛ وفجأة تراجعتْ خطوتين، ثم أدارتْ وجهها، عاقدةً يديها خلْف ظهرها؛ في حين راح أولاده يتقافزون فرحين برؤية الأقفاص المُحَلِّقة، الأقفاص التي غمرتْ كلَّ شيء.

حميت المعركة أكثر. وظلَّ رحاها يدور حتى هبط الليل.

بعد ذلك عمّ الصّمت.

* * *

ضوءٌ باهرٌ أخرسُ ينبثق من قلب الصَّمت.. ضوء باهر حادٌّ مثل عما خاطف يستمر للحظات طويلة، ثمَّ:

عتمة...

* * *

صرخَ: قولي شيئًا!!

- ماذا تقول؟!!

صمتٌ...

صرخت: قُلْ شيئًا!!

- ماذا تقولين؟!!

أغنية النهاية

أقفاصٌ طائرةٌ عبرتْ من خمسِ جهاتٍ، حطَّتْ فوقَ سطوح الإسمنت، انتثـ
مثل العُشبِ الأسود، غنَّتْ! أقفاصٌ ولها أجنحةٌ لا يشبهها شيءٌ، أقفـ
ترقصُ، تتراكضُ، تغفو، وتنامْ. تملأ برَّ الصّحو... وسائدُها الأحلامْ. نامي يا
امرأتي ثمةَ قفصٌ يضحكُ فيكِ وقفصٌ يمرحُ كالنّسمات هنا ما بيَن .
شَعرك، هذا الأبيض مثل الغيمْ! نامي يا امرأتي بين النومِ وبين النومْ. أو مثل
النّدمِ الأعمى في صفحات الدَّمْ. نامي، ثمة أقفاصٌ تحرسُ أجملَ ما
صدركِ من أشجار. أقفاصٌ تحلُمُ عنّا بالأمطارْ. أقفاصٌ تكتبُ شِعْرًا و
مواويلَ، وكالغزلان هنا تتقافزُ عبر السَّهلِ، وفي الجبل الأجردِ تتلَفَّتُ كالشِّنّارْ
لم يعرفْ أحدٌ منّا كيف أتى أولُ قفص أو كيفَ اختار الشّارع أو إنتخبَ البيـ
ثمة شيءٌ في القفص الطائر لا يُدركه الفرحُ ولا يُدركه الموتْ! شيء يتهجّـ
اسمي وشفاهَكِ ويُعيد حكايتنا المنسيَّة وبلا صوتْ. قفصٌ تتذابحُ خارجَ بوا
الطيرُ ويفترسُ الحسّون الحسّونْ. قفصٌ كم يُلغي الفرقَ الأزليَّ المجنونْ.
بينَ الفاتنِ والمفتون! أخشى أن ترحلَ يا امرأتي هذا الأقفاصُ وتتركُنا لرفـ
الدُّوريِّ الباكيةِ وأفئدةِ الغربانْ. ماذا يتبقّى منا إن رحلتْ يا امرأتي وتعرَّ
الإنسان؟! ماذا سنقول لابنتنا: (هجرتك الأقفاصُ ولم تتلفَّتْ نحو ربيعك هذ
القضبانْ!!). أقفاصٌ طائرة وتهاجر من بدءِ الخلْقِ وتعبُرُ حقلَ الورْد كما تـ
يومَ الطوفانْ. تتنزّلُ مثل الشّعرِ على قلب الأحزانْ. أقفاص تأكلُ حينًا، تشربـ
تلهو تتراكضُ من أولِ هذا الشّارع حتى أطراف الصحراءْ. أقفاصٌ في داخـ
أنهارٌ تجري وسماءٌ، تتلوّى، حمراءْ.

ضيَّعتُ مساء الأمس طريقي للقفص المنذور

بكيتُ ليمنحَني أحدٌ قفصًا مهجورْ
قالوا لن تجدَ هنا شيئًا مهجورًا غير الدُّورْ..
وجناح العُشُبِ الأخضرِ.. وغناءِ العصفورْ!!

ليلا.. بعد شهور

مال الصغير نحو إذن أبيه وهمس: لقد حذّرتك! لقد قلتُ لكَ بوضوح، ! تضعنا في موقف حرج كهذا، لكنك لم تسمعني، لو اشتريت لنا كلبًا.. لكنت ارتحتَ... وأرحتَنا!!!!

تنويه

ساهم في كتابة عدد من صفحات هذه الرواية بشكل مباشر عام 2005

علي نصر الله - 14 سنة - ابن المؤلف

ومي نصر الله - 12 سنة - ابنته

كما ساهما بطريقة غير مباشرة

في معايشتهما لعدد آخر من صفحاتها!!

إبراهيم نصر الله

- مواليد عمّان من أبويين فلسطينيين اقتلعا من أرضهما عام 1948.

صدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989.حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993. الأعمال الشعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994.شرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والابن، 1999. مرايا الملائكة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2008.

الروايات: (الطبعات الأولى):

براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَوْ، 1990. مجرد 2 فقط، 1992. حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

(كل رواية مستقلة عن الأخرى)

طيور الحذر، 1996. طفل المحاة، 2000. زيتون الشوارع، 2002. أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004. زمن الخيول البيضاء، 2007. اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009.

أما ترتيبها من حيث تناولها للتسلسل الزمني للقضية الفلسطينية:

زمن الخيول البيضاء، طفل المحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس

آمنة، تحت شمس الضحى.

الشرفات: (الطبعات الأولى):

(كل رواية مستقلة عن الأخرى)

شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010.

كتب أُخرى (الطبعات الأولى):

هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.

ديواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.

السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006.

صور الوجود - السينما تتأمل 2008.

ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية..

أقام ثلاثة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب- عمان، 1993.

نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر، 1991.جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.

جائزة سلطان العويس للشعر العربي، 1997.

---

[1] جودو اسم تلك الشخصية الغامضة المُنتَظَرة في مسرحية صموئيل بيكيت (في انتظار جودو).